2020
7.1.2020

فرانسيس هوجسن بيرنت

الفتى النبيل

ترجمة: بثينة الإبراهيم



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

فرانسيس هوجسن بيرنت

الفتى النبيل

رواية

ترجمة
بثينة الإبراهيم






الفتى النبيل

الكاتب: فرانسيس هوجسن بيرنت

عنوان الكتاب: الفتى النبيل

ترجمة: بثينة الإبراهيم

لوحة الغلاف: تشارلي ماكيسي

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-20-5

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

3000 نسخة

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com @takweenKw



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com @Dar alrafidain

الفصل الأول



لم يعلم سدريك شيئًا عن الأمر، إذ لم يذكر له شيءٌ عنه يومًا. لقد عرف أن أباه رجلٌ إنجليزي لأن أمه أخبرته بذلك، غير أن أباه مات وهو ولد صغير فلا يذكر الكثير عنه، عدا أنه كان ضخمًا، له عينان زرقاوان وشارب طويل، وأن دورانه في الغرفة حاملًا سدريك على كتفه لأمر رائع. تبين لسدريك أنه يجدر به ألا يحدث أمه عن أبيه بعد أن مات. وقد أُبعد سدريك عن البيت حين اعتلت صحة أبيه، وحين عاد كان كل شيء قد انقضى. وأخذت أمه، التي مرضت مرضًا شديدًا، تجلس في كرسيها قرب النافذة. كانت شاحبة وهزيلة، واختفت الغمازات كلها من وجهها الجميل، وبدت عيناها كبيرتين حزينتين وقد ارتدت السواد.

«يا غالية»، قال سدريك (اعتاد أبوه أن يناديها هكذا، فتعلم الصبي الصغير ذلك)، «أحال أبي أفضل يا غالية؟».

شعر بذراعها ترتجف، فأدار رأسه ذا الشعر الأجعد ونظر إلى وجهها، فقد كان فيه شيء جعله يشعر برغبة في البكاء.

فقال «أهو أفضل يا غالية؟».

ثم قال له قلبه المحب إنه يتعين عليه أن يلف ذراعيه حول عنقها ويقبلها مرة بعد أخرى، ويبقي وجنته الناعمة قرب وجنتها، ففعل. وأسندت وجهها على كتفه وبكت بحرقة، وهي تمسك به بقوة كأنها لا تود إفلاته ثانية.

«أجل، إنه بحال أفضل»، نشجت، «إنه بخير تمامًا. ولكن... ولكننا لم يبق لنا سوى بعضنا بعضًا، لا أحد البتة».

فأدرك عندئذ أن أباه الشاب الضخم لن يعود ثانية، وأنه مات كما سمع عن موت آخرين، غير أنه لم يدرك تمامًا الأمر الغريب الذي تسبب بهذا الحزن كله. وقد عزم سرًا على ألا يحدث أمه عن أبيه كثيرًا، لأنها تبكي كلما فعل ذلك. كما وجد أنه يجدر به ألا يتركها تجلس هادئة وتنظر إلى النار أو من النافذة بلا حراك أو حديث. لم يعرف هو وأمه إلا قليلًا من الناس، وعاشا حياتهما وحيدين، غير أن سدريك لم يعلم أنهما كذلك إلا حين كبر قليلًا، وعرف سبب عدم مجيء الزوار إليهم. وقيل له إن أمه كانت يتيمة ووحيدة في العالم عندما تزوجها أبوه. كانت فائقة الجمال وتعيش مرافقة لسيدة ثرية مسنة لم تعاملها معاملة حسنة، ثم جاء النقيب سدريك إرول لزيارة البيت، ورآها ترتقي الدرج مسرعة والدموع تنهمر من عينيها، فبدت جميلة جدًا وبريئة وحزينة ولم يستطع النقيب نسيانها. وبعد حدوث عدد من الأمور الغريبة، تعارفا جيدًا وأحبا بعضهما بقوة وتزوجا، رغم أن زواجهما أثار ضغينة أشخاص عديدين. غير

أن أكثر من غضب كان والد النقيب الذي يعيش في إنجلترا، وكان عجوزًا ذا سطوة؛ نبيلًا فاحش الثراء، ذا مزاج سيء للغاية يحمل كراهية شديدة لأمريكا والأمريكيين. وكان له ابنان يكبران النقيب سدريك، ويقضي القانون بأن يرث الأكبر لقب العائلة وأملاكها الكثيرة العظيمة. فإن مات الأكبر، كان التالي هو الوريث. ورغم أنه ابن عائلة عريقة، لكن فرصته في الثراء كانت ضئيلة.

غير أن الطبيعة وهبت الابن الأصغر هباتٍ لم تهبها للأخوين الآخرين. فقد كان له وجه جميل وقوام حسن قوي رشيق، وله ابتسامة مشرقة وصوت جذل عذب، كما أنه شجاع ووسيم، وله أطيب قلب في العالم، ويتمتع بقدرة على جعل الجميع يحبونه. ولم يكن الأمر كذلك عند أخويه الآخرين، فلا أحد منهما كان وسيمًا، ولا عطوفًا أو ذكيًا. وحين كانا تلميذين في مدرسة إيتون لم يكونا محبوبين. ولم يكترثا لأمر الدراسة حين دخلا الكلية، وضيعا وقتهما ومالهما، ولم يكن لهما من الأصدقاء الحقيقيين إلا قليل. أما الإيرل[1] العجوز أبوهم، فقد خاب رجاؤه فيهما وشعر بالخزي منهما، فلم يكن وريثه مصدر فخر لاسمه النبيل، وأحس أنه لن يكون إلا رجلًا أنانيًا تافهًا، لا يتحلى بسمات الرجولة أو النبل. ورأى الإيرل العجوز أن من السخافة ألا يحظى الولد الثالث إلا بثروة ضئيلة، وقد حظي بكل المواهب والمناقب والقوة والوسامة. فشعر بالكراهية أحيانًا نحو الشاب لأنه يتمتع بكل الصفات التي تلائم

(١) رتبة نبالة إنجليزية أقل من كونت وأرفع من ڤيكونت.

اللقب الفخم والثروة الطائلة التي سينالها شقيقه الأكبر. وفي أعماق قلبه المتكبر العنيد العجوز لم يستطع تجنب الاهتمام بابنه الأصغر كثيرًا. وفي إحدى نوبات نزقه أرسله إلى أمريكا، إذ بدر في ذهنه أن يبعده لبعض الوقت، فلا يغضب بمقارنته دومًا بأخويه اللذين يسببان له الكثير من المتاعب بحياتهما الجامحة.

لكنه أخذ يشعر بالوحدة بعد انقضاء ستة أشهر، واشتاق في سره لرؤية ابنه ثانية. فكتب للنقيب سدريك وأمره بالعودة إلى الديار. وتقاطعت رسالته مع الرسالة التي كتبها النقيب لأبيه يخبره فيها عن حبه لشابة أمريكية جميلة، وأنه يعتزم الزواج منها. وحين تلقى الإيرل الرسالة استشاط غضبًا. ورغم طبعه الشكس، لكنه لم يظهره يومًا كما فعل حين قرأ رسالة النقيب. وظن حاجبه، الذي كان في الغرفة عند وصول الرسالة، أن سيادته سيصاب بالسكتة الدماغية، فقد كان يغلي غضبًا. وجن جنونه لساعة، ثم جلس وكتب لابنه وأمره ألا يقترب يومًا من منزله العتيق، وألا يراسل أباه ولا أخويه ثانية. وأخبره أن بوسعه العيش كيفما شاء، والموت أينما شاء، وأنه سيُشطب من العائلة إلى الأبد، وألا ينتظر مساعدة من أبيه ما دام حيًا.

حزن النقيب كثيرًا عندما قرأ الرسالة، فقد كان مولعًا بإنجلترا، كما أحب منزله القديم كثيرًا حيث ولد، بل إنه أحب أباه العجوز شكس الطباع حبًا جمًا، وتأثر لخيبة أمله. غير أنه أيقن أنه لن يتوقع منه عطفًا في المستقبل. لم يعرف ما سيفعل في بادئ الأمر، إذ لم يعتد العمل وليس لديه خبرة في التجارة، لكنه يتمتع بالشجاعة والعزم.

لذا باع رتبته في الجيش الإنجليزي[1]، وبعد شيء من العناء عثر على وظيفة في نيويورك وتزوج. لقد تغيرت حياته تغيرًا عظيمًا عما كانت عليه في إنجلترا قبلًا، لكنه شاب وسعيد وأمل أن يعود عليه العمل الجاد بثمار هائلة في المستقبل. كان له بيت صغير في شارع هادئ، وولد ابنه الصغير هناك، وكل شيء كان بهيجًا ومفرحًا ببساطته. ولم يندم للحظة على زواجه من المرافقة الجميلة للسيدة العجوز الثرية، لأنها فائقة الجمال وأحبها وأحبته. لقد كانت حلوة المعشر حقًا، وكان ابنها الصغير يشبههما كليهما. صحيح أنه ولد في بيت صغير هادئ ووضيع، ولكن ما من طفل محظوظ أكثر منه. فقد كان بصحة جيدًا دومًا، ولم يسبب مشقة لأحد. ثم إنه حلو الطباع آسر السجايا فأدخل البهجة على قلوب الجميع. كما أنه شديد الجمال كأنه لوحة مرسومة. وبدلًا من أن يكون طفلًا أصلع الرأس فقد ولج الحياة بشعر كثيف ناعم بلون الذهب، يلتف عند الأطراف، وصار شعره حلقات ناعمة حين بلغ الشهر السادس من عمره، وكان له عينان بنيتان كبيرتان وأهداب طويلة ووجه صغير حلو، وظهر قوي ورجلان متينتان، إذ تعلم المشي فجأة عند بلوغه الشهر التاسع من عمره. وكانت أخلاقه حسنة لطفل في عمره، لذا كانت

(١) جرت العادة أن يستطيع الرجل شراء براءة برتبة أو سلطة عسكرية، بأن يدفع مالاً لجعله ضابطًا في سلاح الفرسان أو سلاح المشاة في الفترة الواقعة ما بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر، وبدئ العمل بهذا النظام في عهد الملك تشارلز الثاني عام ١٦٨٣، واستمر حتى عام ١٨٧١ بعد إبطاله بموجب إصلاحات كاردوِل. ويعد المبلغ المدفوع صك تأمين لضمان حسن السير والسلوك؛ يخسره المرء في حالات الجبن أو الفرار من الجندية أو السلوك المشين.

معرفته مثار بهجة. كان يشعر أن الجميع أصدقاءه، وإن تحدث إليه أحد حين يكون في عربته في الشارع، نظر إلى الغريب نظرة عذبة جادة بعينيه البنيتين، يُتبعها بابتسامة جميلة ودودة. ولم يكن أحد في منازل الشارع الهادئ حيث يعيش -حتى البقال على الناصية الذي عُد أكثر الرجال نزقًا على وجه الأرض- لا يشعر بالسرور لمرآه والتحدث إليه. وكلما كبر شهرًا ازداد وسامة وإثارة للاهتمام.

وحين كبر بما يكفي خرج وحده مع مربيته يجر عربة صغيرة ومرتديًا تنورة بيضاء كلتية[1] قصيرة، وقبعة بيضاء كبيرة وضعت على شعره الأجعد. وكان قويًا متوردًا ووسيمًا خلب ألباب الجميع، فتعود مربيته إلى البيت وتحكي للأم قصصًا عن السيدات اللاتي أوقفن عرباتهن للنظر إليه والتحدث معه، وعن سرورهن حين يتحدث إليهن بأسلوبه المرح، كأنه يعرفهن. وقد كانت فتنته الآسرة أسلوبه الطريف المبهج الجريء في عقد الصداقات مع الناس. وأظن هذا نابعًا من طبعه في حسن الظن، والقلب العطوف الصغير الذي يرق للجميع، ويتمنى أن يجعل الجميع هانئين مثلما يحب لنفسه. وجعله ذلك يدرك مشاعر المحيطين به بسرعة. ولعل هذا نما فيه لأنه عاش مع أمه وأبيه، اللذين كانا محبين ورقيقين ومهذبين ومراعيين لمشاعر الآخرين. ولم يسمع يومًا كلمة قاسية أو نابية في البيت، وحظي بالحب والملاطفة والمعاملة الحنونة، فامتلأت روحه الطفلة بالحنان والمشاعر الدافئة البريئة. وسمع أمه تُدعى دومًا

(١) تنورة ذات ثنيات طولية يرتديها الرجال في أسكتلندا وأفراد الفرق الأسكتلندية في الجيش البريطاني.

بأسماء حلوة محبة، فناداها بها حين تحدث إليها، ورأى أباه دومًا يهتم بها ويعتني بها كثيرًا، فتعلم هو أيضًا أن يعتني بها.

وحين عرف أن أباه لن يعود، رأى حزن أمه، فنشأ في قلبه الصغير هاجس بأن عليه أن يفعل ما بوسعه لإسعادها. لم يكن إلا طفلًا، لكن هذا الهاجس كان في ذهنه كلما جلس على ركبتيها وقبّلها ووضع شعره الأجعد على عنقها، وكلما جلب ألعابه وكتبه المصورة ليريها لها، أو التف قربها بهدوء كلما استلقت على الأريكة. لم يكن كبيرًا فيعرف شيئًا آخر يمكنه فعله، بل فعل ما استطاع، وكان مصدر راحة لها أكثر مما أدرك.

«أوه يا ماري!»، سمعها مرة تحدث خادمتها العجوز، «أنا واثقة أنه يحاول مساعدتي بأسلوبه البريء... أعلم أنه يفعل. فهو ينظر إلي أحيانًا نظرة صغيرة متسائلة محبة، كأنه يأسف لحالي، ثم يأتي للاطفتي أو ليريني شيئًا. إنه رجل صغير، وأظنه يعلم ذلك».

وحين كبر قليلًا، صار له الكثير من الأساليب الطريفة التي أبهجت الناس وأسعدتهم كثيرًا. فقد كان مرافقًا لأمه حتى إنه لم يكترث بأي أحد آخر. إذ اعتادا المشي والحديث واللعب سويًا. وحين أصبح صبيًا صغيرًا تعلم القراءة، واعتاد بعدئذ على الاستلقاء على بساط أمام المصطلى مساء، والقراءة جهرًا؛ فيقرأ قصصًا أحيانًا، وكتبًا كبيرة كالتي يقرأها الكبار أحيانًا أخرى، بل يقرأ الصحف أحيانًا. وفي لحظات كهذه كانت ماري في المطبخ تسمع السيدة إِرول تضحك مسرورة على الأمور الطريفة التي يقولها.

«ثم ليس لأحد ألا يضحك على أسلوبه الصغير، وكلامه عتيق الطراز!»، قالت ماري للبقال، «ألم يدخل إلى المطبخ ليلة تنصيب الرئيس الجديد ووقف أمام النار وهو يشبه اللوحة، ويداه في جيوبه الصغيرة، ووجهه الصغير البريء جاد مثل وجه قاضٍ؟ وقال لي: «إنني مهتم كثيرًا بالانتخابات يا ماري، فأنا جمهوري مثلما الغالية جمهورية، فهل أنت جمهورية يا ماري؟» فقلت له «إنني آسفة، فأنا ديمقراطية!» فنظر إليّ نظرة تخترق القلب وقال: «إن البلاد ستفسد يا ماري»، ولم يمض يوم منذئذ إلا وحاول فيه حضّي على تغيير توجهاتي السياسية».

كانت ماري مولعة به كثيرًا، وفخورة به أيضًا. وقد كانت مع أمه منذ ولادته، وصارت بعد موت أبيه الطاهية والخادمة والمربية وكل شيء. كانت مزهوّة بقوامه الصغير القوي الرشيق وأخلاقه الحسنة، وفخورة بوجه خاص بالشعر الأجعد الذي تماوج فوق جبينه وانساب في خصلات حب[1] فاتنة على كتفيه. وكانت مستعدة للعمل باكرًا وفي وقت متأخر لمساعدة أمه في خياطة بدلاته الصغيرة وترتيبها.

«فاخر، أليس كذلك؟»، كانت تقول، «صدقًا! وأود رؤية طفل في الجادة الخامسة يبدو ويخرج بكامل أناقته مثله. وكل رجل وامرأة وطفل ينظر إليه في تنورته القصيرة من القطيفة السوداء التي خطناها

(١) خصلة شعر طويلة كان الرجل في القرنين السادس عشر والسابع عشر يرسلونها فوق الكتف اليسرى دليلًا على الحب.

من فستان السيدة القديم، ورأسه الصغير مرفوع وشعره الأجعد يطير في الهواء ويلمع. إنه يبدو مثل لورد صغير».

لم يعلم سدريك أنه يبدو مثل لورد صغير، بل إنه لم يعرف معنى لورد. كان أفضل أصدقائه البقال على الناصية، البقال الشكس الذي لم يكن شكسًا معه يومًا. كان اسمه السيد هوبز، وأعجب به سدريك وأجلّه كثيرًا. وقد ظنه رجلًا ثريًا ذا نفوذ، إذ لديه الكثير من الأشياء في متجره؛ من البرقوق والتين والبرتقال والبسكويت، ولديه عربة وحصان. كما أحب سدريك بائع الحليب والخباز وبائعة التفاح، لكنه أحب السيد هوبز أكثر من الجميع، وكان على علاقة طيبة معه وذهب لرؤيته كل يوم، وكثيرًا ما جلس معه لوقت طويل، مناقشًا قضايا الساعة. لقد كان عدد القضايا التي تحدثا عنها مدهشًا حقًا، ومنها عيد الاستقلال مثلًا. وحين أخذا يتحدثان عن عيد الاستقلال، لم يبد أن للحديث نهاية، فقد كان للسيد هوبز رأي سيء بـ«البريطانيين»، وقص عليه قصة الثورة كاملة، ساردًا قصصًا رائعة بطولية عن دناءة العدو وشجاعة أبطال الثورة، بل إنه كثيرًا ما ردد جزءًا من إعلان الاستقلال.

تحمس سدريك كثيرًا فلمعت عيناه وتورد خداه والتف شعره وتشابك في كتلة كثيفة شقراء. وعند عودته إلى البيت لم يطق صبرًا حتى يتناول عشاءه، إذ تحمس لإخبار أمه. ولعل السيد هوبز كان أول من أثار اهتمامه بالسياسة، فقد كان هوبز مغرمًا بقراءة الصحف، وهكذا سمع سدريك كثيرًا مما يجري في واشنطن؛ فيخبره السيد

هوبز إن كان الرئيس يؤدي واجبه أم لا. ومرة في أيام الانتخابات، وجد الأمر عظيمًا، ولربما فسدت البلاد لولا السيد هوبز وسدريك.

أخذه السيد هوبز لرؤية مسيرة المشاعل العظيمة، وتذكر العديد من الرجال حاملي المشاعل بعد ذلك رجلًا بدينًا وقف قرب عمود الإنارة حاملًا على كتفيه صبيًا صغيرًا جميلًا يهتف ويلوح بقبعته في الهواء.

كان عمر سدريك قد تجاوز السابعة بقليل بعد انتهاء الانتخابات، فحدث أمر غريب أحدث تغييرًا رائعًا في حياته. كما أن الأمر طريف أيضًا، فقد حدث في اليوم الذي حدثه فيه السيد هوبز عن إنجلترا والملكة. وقال السيد هوبز أمورًا قاسية بحق الأرستقراطية، فقد كان ساخطًا على من يحملون لقب الإيرل والماركيز. كان صباحًا حارًا، وبعد أن لعب سدريك لعبة الجنود مع بعض رفاقه، ذهب إلى متجر السيد هوبز ليرتاح ووجد السيد هوبز ينظر متجهمًا إلى صحيفة أخبار لندن المصورة، وكان فيها صورة لحفل في البلاط.

قال: «آه! هذه حياتهم الآن، لكنهم سيتخلون عنها يومًا ما، حين يثور أولئك الذين داسوا عليهم فيطيحون بهم، كل من يحمل لقب الإيرل والماركيز وسواهم! إن هذا لآتٍ، وعليهم أن يحذروه!».

جلس سدريك على مقعد عالٍ كعادته وأرجع قبعته إلى الخلف، ووضع يديه في جيوبه في مجاملة رقيقة للسيد هوبز.

«هل عرفت أحدًا من هؤلاء الماركيزات يومًا يا سيد هوبز؟»، سأل سدريك، «أو الإيرلات؟».

«كلا»، أجاب السيد هوبز ساخطًا، «لا أظن. أود الإمساك بواحد منهم هنا في الداخل، هذا كل ما في الأمر! لن أسمح لطاغية مستبد بالجلوس على صناديق البسكويت!».

وكان فخورًا بمشاعره فنظر حوله بزهو ومسح جبهته.

«لعلهم لن يكونوا إيرلات لو كانوا يعلمون»، قال سدريك شاعرًا بتعاطف غامض لحالهم التعسة.

«لن يكونوا؟!»، قال السيد هوبز، «إنهم يفخرون بها! إنها في دمائهم. إنهم جماعة سيئة».

كانا في خضم حديثهما حين جاءت ماري.

فظن سدريك أنها ربما جاءت لشراء بعض السكر، لكنها لم تأت لذلك. وقد بدت شاحبة كأنما يشغلها أمر ما.

«عد إلى البيت يا عزيزي»، قالت، «السيدة تريدك».

نزل سدريك من المقعد.

«أتريدني أن أخرج معها يا ماري؟»، سألها، «عم صباحًا يا سيد هوبز، سأراك ثانية».

فوجئ لرؤية ماري تحملق به مندهشة، وتساءل لماذا ظلت تهز رأسها.

«ما الأمر يا ماري؟»، سألها، «أهو الجو الحار؟».

«كلا، لكنّ أمورًا غريبة تحدث لنا».

«هل تسببت الشمس بصداع للغالية؟»، سأل قلقًا.

ولكن لم يكن هذا السبب. حين وصل بيته وجد سيارة أمام الباب وأحد ما يجلس في الردهة الصغيرة يتحدث إلى أمه. أسرعت به ماري إلى الأعلى وألبسته أفضل بدلة صيفية من قماش الفلانيل بلون القشدة، ووضعت وشاحًا أحمر حول خصره ومشطت شعره الأجعد.

«إنه لورد، إذن؟»، سمعها تقول، «والنبالة والرفعة. آخ! تعسًا لهم! لوردات حقًا... تعسًا».

كان ذلك محيرًا حقًا، لكنه واثق أن أمه ستخبره بمعنى هذه الجلبة، فترك ماري لتتذمر وحدها دون أن يسألها مزيدًا من الأسئلة. وحين فرغ من ارتداء ثيابه نزل الدرج ودخل الردهة. كان رجل طويل نحيل ذو وجه صارم يجلس على كرسي ذي مسندين. ووقفت أمه قربه شاحبة الوجه، ورأى دموعًا في عينيها.

«اوه! سِدي!»، قالت وركضت نحو ولدها الصغير وعانقته وقبلته بخوف وحزن، «أوه! سدي يا عزيزي!».

نهض الرجل الطويل من كرسيه ونظر إلى سدريك بعينيه الصارمتين. وفرك ذقنه النحيل بيده العاجية وهو ينظر إليه.

ولم يبد عليه الاستياء البتة.

«إذن...»، قال في نهاية المطاف ببطء، «إذن هذا هو الفتى النبيل».

الفصل الثاني

ما من فتى صغير أكثر عجبًا مما كان عليه سدريك في الأسبوع التالي؛ وما من أسبوع غريب أو خيالي كهذا. إذ كانت القصة التي حكتها له أمه قصة عجيبة، واضطر لسماعها مرتين أو ثلاثًا قبل أن يعيها. ولم يتخيل ما سيقوله عنها السيد هوبز. وهي تبدأ بالإيرلات؛ فجده الذي لم يره يومًا، كان إيرلًا، وعمه الأكبر كان سيصبح إيرلًا أيضًا بمرور الوقت لولا موته بعد سقوطه عن حصانه. وبعد موته كان عمه الآخر سيصبح إيرلًا لولا أنه مات من الحمى فجأة في روما. وبعد ذلك كان أبوه، لو كان حيًا، سيصبح إيرلًا. ولما ماتوا جميعًا ولم يبق إلا سدريك، تبين أنه سيصبح إيرلًا بعد موت جده، لكنه في الوقت الراهن لوردًا فتيًا نبيلا[1].

(١) العبارة بالإنجليزية Little Lord Fauntleroy وتعني حرفيًا ابن الملك (من الفرنسية Le Enfant Le Roy)، ولكن سدريك حفيد رجل من طبقة النبلاء، لذا ترجمت إلى الفتى النبيل، واختصرت في مواضع أخرى إلى اللورد. صارت الكلمة لاحقًا، تيمنًا ببطل هذه الرواية، تشير إلى كل ولد فائق التهذيب وحسن الهندام، وبخاصة إذا كان يرتدي سترة قصيرة وبنطالًا يمتد حتى الركبتين وقميصًا مكشكشًا له ياقة واسعة وربطة فراشة كبيرة.

امتقع لونه بشدة حين أخبر بهذا أول مرة.

«أوه! أفضل ألا أكون إيرلًا أيتها الغالية. لا أحد من الأولاد إيرل. أيمكنني ألا أكون كذلك؟»، قال لها.

ولكن تبين أن الأمر حتمي. وتحدث هو وأمه مطولًا عن الأمر عندما جلسا ذلك المساء قرب النافذة ينظران منها إلى الشارع الحقير. جلس سدريك على مسند القدمين، ممسكًا بركبته بهيئته المفضلة، تعلو الحيرة وجهه الذي احمر من فرط التفكير. لقد أرسل جده في طلبه ليأتي إلى إنجلترا، ورأت أمه أنه يجدر به الذهاب.

قالت وهي تنظر من النافذة بعينين حزينتين «لأنني أعلم أن هذا ما تمناه أبوك يا سدي. فقد أحب دياره كثيرًا، وثمة الكثير من الأمور التي لن يفهمها فتى صغير تمام الفهم. وسأكون أمًا أنانية إن لم أرسلك، وسوف تدرك السبب حين تغدو رجلًا».

هز سدي رأسه بحزن.

«سأشعر بالأسى الشديد إن تركت السيد هوبز»، قال، «وأظنه سيفتقدني، وسأفتقده، وسأفتقد الجميع».

وفي اليوم التالي لما جاء السيد هافشَم -محامي عائلة إيرل دورنكورت، الذي أرسل لإحضار الفتى النبيل إلى إنجلترا- سمع سدريك أمورًا كثيرة. غير أنه لم يسر لدى معرفته بأنه سيصبح رجلًا ثريًا حين يكبر، وأنه سيملك قصورًا هنا وقصورًا هناك وحدائق كبيرة ومناجم عميقة، وعزبًا وأراضيَ مستأجرة كبيرة. بلِ شعر

بالقلق من أجل صديقه السيد هوبز، وذهب لرؤيته في المتجر بعد الإفطار وهو مشغول البال كثيرًا.

وجده يقرأ صحيفة الصباح، فاقترب منه بهيئة حزينة. لقد شعر أن السيد هوبز سيصدم لدى سماعه ما حدث له، وأخذ يفكر في طريقه إلى المتجر أنه يجدر به أن يعلن النبأ.

«مرحباً»، قال السيد هوبز، «صباح الخير!».

«عم صباحًا»، قال سدريك.

لم يجلس على المقعد العالي كعادته، بل جلس على صندوق للرقائق وأمسك بركبته، والتزم الصمت لدقائق فنظر إليه السيد هوبز من فوق صحيفته أخيرًا بتساؤل.

«مرحبًا!»، قال ثانية.

استجمع سدريك كل قواه.

«أتذكر ما تحدثنا عنه البارحة يا سيد هوبز؟»، قال.

«حسن»، قال السيد هوبز، «يبدو لي أننا تحدثنا عن إنجلترا».

«أجل، ولكن أتعرف ما تحدثنا عنه حين جاءت ماري لاصطحابي؟»، قال.

«كنا نتحدث عن الملكة ڤكتوريا والأرستقراطية».

«أجل»، أجاب سدريك بشيء من التردد، «وعن... عن الإيرلات، ألا تذكر؟».

«أوه، بلى. لقد تحدثنا عنهم قليلًا، هذا صحيح!»، رد السيد هوبز.

احمر وجه سدريك حتى بلغ الاحمرار الذؤابة المتماوجة على جبينه. ما من شيء حدث له في حياته أكثر إحراجًا من هذا، فقد خشي أن يكون الأمر محرجًا بعض الشيء للسيد هوبز أيضًا.

فاستأنف حديثه: «لقد قلت إنك لن تسمح لهم بالجلوس على صناديق رقائقك».

«هذا صحيح!»، قال السيد هوبز بحزم، «وقد عنيت ذلك. دعهم يحاولوا ذلك... ولنر!».

«إن أحدهم يجلس على هذا الصندوق الآن يا سيد هوبز!».

فقفز السيد هوبز ناهضًا من كرسيه قائلًا:

«ماذا؟!».

فقال سدريك بتواضع كافٍ: «أجل. إنني واحد منهم، أو سأصبح كذلك. ولن أخدعك».

بدا السيد هوبز قلقًا، ونهض فجأة ليتفقد مقياس الحرارة.

«لقد بلغ الزئبق الذروة!»، قال مستديرًا نحو الفتى ليفحص ملامح صديقه الصغير. «إنه ليوم حار! كيف تشعر؟ أتشعر بأي ألم؟ منذ متى بدأت تشعر هكذا؟».

ووضع يده الكبيرة على شعر الفتى الصغير، وكان هذا أكثر إحراجًا من ذي قبل.

«شكرًا لك. إنني بخير تمامًا، وما برأسي من بأس. يؤسفني أن أقول إن هذه هي الحقيقة يا سيد هوبز، وهذا ما جاءت ماري لتأخذني إلى البيت من أجله. أخبر السيد هاڤشَم أمي بذلك وهو محامٍ».

غاص السيد هوبز في كرسيه ومسح جبينه بمنديله، وقال:

«لا بد أن ضربة شمس قد أصابت واحدًا منا!».

«كلا، لم يصب أي منا. علينا أن نتصرف على نحو أفضل يا سيد هوبز. لقد سافر السيد هاڤشَم كل هذه المسافة من إنجلترا ليخبرنا عن الأمر، وقد أرسله جدي».

حملق السيد هوبز غاضبًا بالوجه الصغير البريء أمامه، وسأل:

«ومن جدك؟».

وضع سدريك يده في جيبه وسحب بحذر قصاصة ورق كتب عليها شيئًا ما بخطه الواضح المتعرج.

«لم أتمكن من تذكره بسهولة لذا كتبته على هذه»، قال وقرأ بصوت عال ««جون آرثر مَلينو إرول، إيرل دورنكورت». هذا اسمه وهو يعيش في قصر... في قصرين أو ثلاثة قصور، كما أظن. وأبي الذي مات كان ابنه الأصغر، ولم يكن لي أن أصبح إيرلًا لو لم يمت أبي؛ ولم يكن أبي ليصبح إيرلًا لو لم يمت أخواه الاثنان، ولكن مات كلاهما، ولم يبق أحد سواي -ولا صبي آخر- لذا علي أن أكون إيرلًا، وقد أرسل جدي إليّ للذهاب إلى إنجلترا».

أخذ السيد هوبز يشعر بمزيد من الحرارة، ومسح جبينه ورأسه

الأصلع وتنفس بصعوبة. وأدرك أن أمرًا هامًا قد حدث، ولكنه حين نظر إلى الصبي البريء الجالس على صندوق الرقائق، وفي عينيه الطفلتين براءة وقلق، ورأى أنه لم يتغير البتة، بل هو مثل ما كان يوم أمس؛ فتى صغير شجاع مرح وسيم يرتدي بزة زرقاء وربطة عنق حمراء، وقد حيرته كل هذه المعلومات عن النبالة. وازدادت حيرته أكثر لأن سدريك قالها ببساطة وبراءة ومن الواضح أنه لم يدرك غرابتها.

«ما... ماذا قلت لي اسمك؟»، سأل السيد هوبز.

«سدريك إِرول، الفتى النبيل»، أجاب سدريك، «هذا ما دعاني به السيد هاڤشَم، فقد قال عند دخولي الغرفة «هذا هو الفتى النبيل إذن!»».

«حسن»، قال السيد هوبز، «سأصاب بالذهول!».

كانت هذه عبارة يقولها دومًا إن دهش أو تحمس، إذ لم يستطع التفكير بأمر آخر يقوله في هذه اللحظة المحيرة.

وظن سدريك أن التزام الصمت هو الرد المناسب اللائق، فقد كان إعجابه واحترامه للسيد هوبز كبيرين فأحب كل تعليقاته ووافقه عليها. لم يكن قد اختلط بالمجتمع كفاية ليدرك أن السيد هوبز كان غريب الأطوار تمامًا بعض الأحيان. ولقد عرف طبعًا أنه مختلف عن أمه، غير أن أمه سيدة، وآمن دومًا أن السيدات مختلفات عن الرجال.

نظر إلى السيد هوبز حزينًا، وسأل:

«إن إنجلترا بعيدة، أليست كذلك؟».

«إنها خلف المحيط الأطلسي»، أجاب السيد هوبز.

«هذا أسوأ ما في الأمر»، قال سدريك، «ربما لن تتسنى لي رؤيتك ثانية لوقت طويل. لا أحب التفكير بهذا يا سيد هوبز».

«لا بد أن يفترق أعز الأصدقاء»، قال السيد هوبز.

«حسن. لقد كنا صديقين لسنوات رائعة كثيرة، أليس كذلك؟»، قال سدريك.

«منذ أن ولدت»، أجاب السيد هوبز، «لقد كان عمرك ستة أسابيع تقريبًا حين جئت هذا الشارع أول مرة».

«آه»، عقّب سدريك متنهدًا، «لم يخطر لي حينها أنني سأكون إيرلًا!».

«أتظن أن لا مناص من هذا؟»، قال السيد هوبز.

«أخشى أنه ما من مناص»، قال سدريك، «قالت أمي إن أبي يود أن أفعل ذلك. ولكن إن كان علي أن أكون إيرّلا، فثمة أمر واحد يمكنني فعله؛ يمكنني أن أحاول أن أكون إيرلًا صالحًا، فلن أكون ظالمًا. وإن نشبت حرب أخرى مع أمريكا يومًا، فسأحاول إيقافها».

كان حديثه مع السيد هوبز طويلًا وجادًا. وبعد أن تجاوز السيد هوبز الصدمة الأولى، لم يعد غاضبًا كما تُوقع، بل جهد للإذعان للأمر، وقد سأل أسئلة كثيرة قبل انتهاء اللقاء. ولما لم يستطع

سدريك الإجابة إلا عن قليل منها، جهد ليجيب عنها بنفسه. ولما كان ملمًا بأمور الإيرلات والماركيزات وألقاب النبالة، فقد شرح الكثير من الأمور شرحًا لا بد أنه سيدهش السيد هاڤشَم، لو سمعه ذلك الرجل المحترم.

غير أن أمورًا كثيرة أثارت عجب السيد هاڤشَم. فقد قضى كل حياته في إنجلترا ولم يألف الأمريكيين والعادات الأمريكية. وقد ارتبط بعائلة إيرل دورنكورت مهنيًا لأربعين عامًا تقريبًا، وعلم كل شيء عن عزبها الكبيرة وثروتها الطائلة ومكانتها، وشعر بشيء من الاهتمام -اهتمام بارد متعلق بالعمل- بهذا الصبي الصغير الذي سيصبح في المستقبل سيد العزب ومالك الثروة كلها، وسيصبح إيرل دورنكورت في المستقبل. وقد عرف بخيبة الإيرل الكبير بولديه وغضبه العارم لزواج النقيب سدريك في أمريكا. وعرف أنه ما زال يكره الأرملة الشابة الرقيقة وأنه لن يتحدث إليها إلا بكلمات غاضبة قاسية. فقد أصر على أنها ليست سوى فتاة عادية أمريكية، أوقعت ابنه في شِراكها ليتزوجها لأنها علمت أنه ابن إيرل.

صدق المحامي العجوز هذا الكلام، فقد رأى الكثير من الناس الأنانيين الجشعين في حياته، ولم يكن رأيه في الأمريكيين حسنًا. وحين دخل الشارع الوضيع، وتوقفت سيارته أمام المنزل الصغير الحقير، صدم فعلًا. فقد بدا التفكير بأن المالك المستقبلي لقلعة دورنكورت وأبراج وندهام وكورلورث، وكل الامتيازات الفخمة، ولد وترعرع في منزل حقير يقع في شارع على ناصيته محل للخضار. وتساءل أي نوع من الأطفال هو، وأي نوع من الأمهات

أمه. وقد جفل من رؤية كليهما، إذ كان في نفسه شيء من الزهو بالعائلة النبيلة التي أدار شؤونها القانونية لزمن طويل، وساءه كثيرًا أن يرى نفسه ملزمًا بالتعامل مع امرأة ظنها مبتذلة محبة للمال دون احترام لبلد زوجها الميت ولا كرامة اسمه. لقد كان اسمًا عريقًا وفخمًا، وكان السيد هاڤشم يكنّ له احترامًا، رغم كونه محاميًا عجوزًا حذقًا باردًا خبيرًا.

حين أخذته ماري إلى الردهة الصغيرة، نظر في أرجائها بعين متفحصة. إذ كانت بسيطة الأثاث، لكن فيها روح الدار، فما من زينة رخيصة مبتذلة، ولا لوحات رخيصة مبهرجة، وكانت الزينة القليلة على الجدران تنم عن ذوق رفيع، وفي أنحاء الغرفة كانت أشياء جميلة كثيرة لا بد أن يد امرأة صنعتها.

«ليس سيئًا حتى الآن»، قال في نفسه، «ولكن لعل ذوق النقيب قد طغى». ولكن حين دخلت السيدة إرول الغرفة، أخذ يفكر أن لها يدًا في ذلك. ولولا أنه رجل عجوز جاف منغلق على ذاته لتعجب لمرآها. فقد بدت في الثوب الأسود البسيط، الملائم تمامًا لقوامها الرشيق، شابة أكثر من كونها أمًا لصبي في السابعة. وكان لها وجه جميل حزين شاب، ونظرة رقيقة جدًا في عينيها البنيتين الكبيرتين؛ النظرة الحزينة التي لم تفارق وجهها منذ موت زوجها. اعتاد سدريك رؤية هذه النظرة، والمرات القليلة التي لم يرها فيها؛ كانت الأوقات التي يلعب معها أو يتحدث إليها، فيقول شيئًا عتيقًا الطراز، أو يلفظ كلمة طويلة تعلمها من الصحف أو من أحاديثه

مع السيد هوبز. لقد أحب استخدام الكلمات الطويلة، وسر دومًا إن أضحكتها، رغم أنه لم يفهم لم تُضحكها، إذ كانت أمورًا جادة عنده. تعلم المحامي من خبرته قراءة الشخصيات بذكاء، وما إن رأى أم سدريك حتى عرف أن الإيرل العجوز قد أخطأ خطأ فادحًا في ظنه أنها امرأة سوقية جشعة. لم يتزوج السيد هاڤشم قط، ولا وقع في الغرام، لكنه حدس أن هذه المرأة الجميلة ذات الصوت العذب والعينين الحزينتين، تزوجت النقيب إرول لأنها أحبته فحسب من صميم قلبها، وأنها لم تر كونه ابن إيرل امتيازًا يومًا. ورأى أنه لن يواجه متاعب معها، وأخذ يشعر أن الفتى النبيل قد لا يكون بلاء على عائلته النبيلة في نهاية الأمر. كان النقيب شابًا وسيمًا، والأم الشابة جميلة، فلعل الصبي حظي بقدر كافٍ من الجمال.

حين أخبر السيدة إرول في البدء عن سبب قدومه، امتقع وجهها، وقالت: «أوه! هل سيُأخذ مني؟ إننا نحب بعضنا كثيرًا! إنه سعادتي! وهو كل ما لدي. لقد حاولت أن أكون أمًا صالحة له»، وتهدج صوتها الشاب العذب، وانهمرت الدموع من عينيها، «لست تدري ما يعنيه لي!»، قالت.

تنحنح المحامي وقال: «أنا ملزم بإخبارك أن إيرل دورنكورت لا... لا يحمل ودًا لك. إنه عجوز وكبرياؤه عظيمة. لقد أبغض أمريكا والأمريكيين دومًا، وغضب كثيرًا لزواج ابنه. يؤسفني أن أكون ناقل أخبار سيئة كهذه، لكنه مصر على قراره في ألا يراك. وتقضي خطته بأن يتلقى الفتى النبيل تعليمه تحت إشراف الإيرل

وأن يعيش معه. إن الإيرل مرتبط بقلعة دورنكورت ويقضي قسطًا كبيرًا من وقته هناك. وهو مصاب بالنقرس، وليس محبًا للندن. لذا فإن الفتى النبيل سيعيش معه غالبًا في دورنكورت. ويعرض عليك الإيرل بيت الصيد منزلًا، وقد أعد إعدادًا لائقًا، كما أنه لا يبعد كثيرًا عن القلعة. كما يعرض عليك دخلًا مناسبًا. وسيسمح للفتى النبيل بزيارتك، والشرط الوحيد ألا تزوريه أو تتجاوزي بوابة الحديقة. وكما ترين فلن تكوني منفصلة تمامًا عن ابنك وأؤكد لك يا سيدتي أن الشروط ليست قاسية كما تبدو. وستكون الفائدة عظيمة من البيئة والتعليم اللذين سيحظى بهما الفتى النبيل، وأنا واثق أنك تعرفين ذلك».

شعر بقليل من الاضطراب خشية أن تبكي أو تحدث جلبة، لأنه يعرف أن النساء يفعلن هذا، ورؤية امرأة تبكي مما يثير حرجه واستياءه.

لكنها لم تبك، بل مشت نحو النافذة ووقفت مشيحة بوجهها للحظات، ورأى أنها تحاول تمالك نفسها.

فقالت في النهاية «لقد أحب النقيب دورنكورت كثيرًا، وأحب إنجلترا وكل ما هو إنجليزي. وأحزنه دومًا بعده عن دياره. لقد كان فخورًا بدياره واسمه، وسيود... أعلم أنه سيود أن يعرف ابنه الأماكن القديمة الجميلة، وأن ينشأ نشأة ملائمة للقبه المستقبلي».

ثم تقدمت نحو الطاولة ووقفت تنظر إلى السيد هافشم بلطف شديد.

قالت: «سيحب زوجي ذلك، وأعلم أن هذا أفضل للصبي الصغير. أعلم... أنا واثقة أن الإيرل لن يكون قاسيًا جدًا فيحاول تنشئته على ألا يحبني، وإن حاول فأنا واثقة أن ابني الصغير يشبه أباه كثيرًا ولا يستحق الأذى. إن له قلبًا صادقًا وطبعًا مخلصًا دافئًا، وسيحبني وإن لم يرني، وإن لم نر بعضنا لوقت طويل، فلن أحزن كثيرًا».

قال المحامي في نفسه «إنها لا تفكر في نفسها، ولم تضع شروطًا لمصلحتها».

ثم قال بصوت عالٍ: «إنني أجل تفكيرك في ابنك يا سيدتي، وسيشكرك على ذلك حين يغدو رجلًا. وأؤكد لك أن الفتى النبيل سيصان ولن يذخر جهد من أجل سعادته. سيكون إيرل دورنكورت حريصًا على راحته وعافيته بقدرك تمامًا».

قالت الأم الشابة الرقيقة بصوت منكسر قليلًا «آمل أن يحب الجدُ سدي. إن للصبي الصغير طبعًا محبًا للغاية وقد قوبل بالحب دومًا».

تنحنح السيد هاڤشم ثانية، فلم يتخيل الإيرل العجوز ذي الطبع الشكس والمصاب بالنقرس محبًا لأحد كثيرًا. لكنه علم أن في صالحه أن يكون عطوفًا، رغم أسلوبه النزق، على الولد الذي سيكون وريثه. كما عرف أيضًا أن الجد سيكون فخورًا بسدريك إن كان مفخرة لاسمه.

فأجاب «أنا واثق أن الفتى النبيل سيكون مرتاحًا، وقد رغب الإيرل بأن تكوني قريبة منه حتى يراك باستمرار من أجل سعادته».

لم ير أن من الحكمة تكرار الكلمات نفسها التي قالها الإيرل، والتي لم تكن مهذبة ولا ودودة في الحقيقة.

آثر السيد هاڤشم طرح عرض راعيه النبيل بكلمات ألطف وأكثر لباقة. وقد دهش قليلًا حين طلبت السيدة إرول أن تعثر على الفتى الصغير وتحضره إليها، وأخبرتها ماري بمكانه.

«لا بد أنني سأجده بسرعة يا سيدتي، لأنه مع السيد هوبز هذه اللحظة، يجلس على المقعد العالي قرب المنضدة ويتحدث في السياسة، على الأرجح، أو يسلي نفسه برؤية الشموع والصابون والبطاطا، عاقلًا وعذبًا كما تعرفين».

«لقد عرفه السيد هوبز طوال حياته»، قالت السيدة إرول للمحامي، «إنه عطوف على سدي، وبينهما صداقة قوية».

ساورت الشكوك السيد هاڤشم ثانية حين تذكر النظرة الخاطفة التي رأى بها المتجر حين مر به، وحين تذكر براميل البطاطا والتفاح ومختلف الأصناف. ففي إنجلترا لا يعقد أبناء النبلاء صداقات مع البقالين، وبدا ذلك له حادثًا واحدًا على الأرجح. وسيكون غريبًا جدًا أن يكون للصبي أخلاق سيئة ونزعة لصحبة الرعاع. فقد كان إحدى أقسى الإهانات التي تعرض لها الإيرل العجوز حب ابنيه الأكبرين لرفقة السوقة، وقال في نفسه أيمكن أن يكون الصبي ورث صفاتهما السيئة عوضًا عن خصال أبيه الحميدة؟

كان يفكر بهذا الأمر مليًا وهو يتحدث إلى السيدة إرول، عندما دخل الطفل إلى الغرفة. وحين فتح الباب، تردد لحظة قبل النظر

إلى سدريك. ولعل ذلك سيبدو غريبًا جدًا لكثير من الناس الذين يعرفونه، إن عرفوا الإحساس الغريب الذي شعر به السيد هافشم حين نظر إلى الصبي الذي جرى إلى ذراعي أمه. فقد خبر تحولًا في مشاعره وهذا مثير حقًا. إذ أدرك في لحظة أن أمامه واحدًا من أجمل وألطف الصبيان الصغار الذين رآهم في حياته.

كان جماله خارقًا، فله جسد قوي رشيق لدن، ووجه صغير شجاع، وقد رفع رأسه الطفولي وتحلى بمسحة جسورة. وقد أشبه أباه كثيرًا لحد يثير العجب، إذ له شعر أبيه الذهبي وعينا أمه البنيتين، بلا حزن أو خوف فيهما، بل كانتا عينين جريئتين وبدا كأنه لا يخشى شيئًا أو يرتاب في شيء في حياته.

«إنه أوسم الصغار وأحسنهم نشأة»، هذا ما خطر للسيد هافشم، أما ما قاله بصوت عال «هذا هو الفتى النبيل إذن».

وكلما رأى الفتى النبيل بعد ذلك ازداد عجبًا منه. لم يعرف عن الأطفال إلا قليلًا، رغم أنه رأى كثيرًا منهم في إنجلترا... فتياتٍ وفتيانًا جميلين ومهذبين ومتوردي الخدود، اعتنى بهم مدرسوهم ومربياتهم عناية صارمة، وكانوا خجلين أحيانًا وصاخبين قليلًا في أحيان أخرى، غير أنهم لم يثيروا اهتمام محامٍ متحفظ صارم. لعل اهتمامه الشخصي بثروة الفتى النبيل جعله ينتبه لسدريك أكثر مما انتبه للصغار الآخرين، غير أنه وجد نفسه منتبهًا له أيًا كان السبب.

لم يعلم سدريك أنه مراقب، فتصرف على طبيعته بأسلوبه المعتاد. وصافح السيد هافشم بأسلوبه الودود حين تعارفا، وأجاب

عن كل الأسئلة بسرعة ودون تردد كما أجاب السيد هوبز. فلم يكن خجولًا ولا وقحًا، وحين كان السيد هاڤشم يتحدث إلى أمه، لاحظ المحامي أنه أصغى إلى حديثهما باهتمام بالغ كأنه راشد.

«يبدو صبيًا صغيرًا ناضجًا جدًا»، قال السيد هاڤشم للأم.

«أحسبه كذلك، في بعض الأمور»، أجابت، «لقد كان سريع التعلم دومًا، وقد عاش مع الراشدين كثيرًا. وله عادةٌ طريفةٌ في استخدام كلمات وعبارات طويلة قرأها في الكتب أو سمع الآخرين يقولونها، لكنه يحب لعب الأطفال. أظنه ذكيًا إلى حد ما، لكنه صبي صغير طائش أحيانًا».

حين التقاه السيد هاڤشم في المرة التالية، رأى الصفة الأخيرة حقيقية. حين انعطفت سيارته عند الناصية، رأى مجموعة من الصبيان الصغار بادٍ عليهم الحماس. وكان اثنان منهم يوشكان على بدء سباق، وأحدهما سيده الصغير، وكان يصرخ ويحدث صخبًا بقدر أكثر رفاقه صخبًا. ووقف جنبًا إلى جنب فتى آخر، وقد قدم إحدى رجليه التي ترتدي جوربًا أحمر.

«واحد، للاستعداد!»، هتف حكم الانطلاق، «اثنان لتثبتوا، ثلاثة لتنطلقوا!».

وجد السيد هاڤشم نفسه يميل من نافذة سيارته بإحساس غريب من الاهتمام. لم يذكر قط أنه رأى شيئًا شبيهًا بالأسلوب الذي طارت به الساقان الحمراوان الصغيرتان النبيلتان خلف البنطال القصير وحطتا على الأرض حين انطلق في السباق لدى

شارة البدء. لقد قبض يديه الصغيرتين ويمم وجهه للريح وانساب شعره اللامع خلفه.

«مرحى لسد إرول!» هتف الصبية يرقصون ويزعقون من الحماس، «مرحى لبِل وليمز! مرحى لسدي، مرحى لبِلي! مرحى! مرحى! مرحى!».

«أظنه سيفوز حقًا»، قال السيد هاڤشم. لقد شعر بالإثارة لرؤية طيران الساقين الحمراوين وعلوهما وهبوطهما، وصيحات الفتية، والمحاولات المستميتة لبِلي وليمز الذي لا يستهان بساقيه البينيتن الكبيرتين، فقد كانتا خلف الساقين الحمراوين، «أنا... لا يمكنني إلا أن أتمنى له الفوز!» قال بسعال مصطنع. في تلك اللحظة انطلقت أصخب الهتافات من الفتيان الراقصين المتواثبين، وبقفزة واحدة أخيرة نشطة وصل إيرل دورنكورت المستقبلي إلى عمود الإنارة في نهاية الحي ولمسه، قبل أن يلقي بِلي وليمز بنفسه عليه لاهثًا بثانيتين فحسب.

«ثلاثة هتافات لسدي إرول»، صاح الصبية الصغار، «مرحى لسدي إرول!».

سحب السيد هاڤشم رأسه من نافذة سيارته واعتدل مبتسمًا ابتسامة جافة.

«أحسنت أيها الفتى النبيل!»، قال.

عندما توقفت سيارته أمام منزل السيدة إرول، اتجه نحوها المنتصر والمهزوم، تحيط بهما العصبة الصاخبة. مشى سدريك جنب

بِلي وليمز وكان يتحدث إليه، وكان وجهه المبتهج شديد الحمرة وخصلات شعره ملتصقة بجبينه الساخن المتعرق ويداه في جيوبه.

كان يقول بنية واضحة لجعل الهزيمة هينة في عين خصمه المهزوم «أظنني ربحت لأن ساقيّ أطول بقليل من ساقيك كما ترى، وأظن هذا السبب. إنني أكبرك بثلاثة أيام كما تعلم، وهذا يعطيني أفضلية، إنني أكبر بثلاثة أيام».

وبدا أن هذا الرأي قد أسعد بِلي وليمز كثيرًا فأخذ يبتسم للعالم ثانية، وشعر أن بوسعه التبجح قليلًا، كأنما فاز بالسباق بدلًا من خسارته. لسدي إرول أسلوب في جعل الآخرين يشعرون بالراحة. وفي الفورة الأولى لفوزه تذكر أن الصبي المهزوم لن يفرح كما فعل هو، وأنه قد يود الظن بأنه يمكنه الفوز في ظروف أخرى.

حظي السيد هافشم بحديث طويل مع رابح السباق، حديث جعله يبتسم ابتسامته الجافة ويحك ذقنه بيده العاجية عددًا من المرات.

نوديت السيدة إرول خارج الردهة، فظل المحامي وسدريك معًا. تساءل السيد هافشم في البدء عما يقول لرفيقه الصغير، فقد خطر له أنه يجدر به قول بضعة أمور قد تعدّ سدريك للقاء جده، وللتغيير الهائل الذي سيطرأ عليه. إذ رأى أن سدريك لا يملك أدنى فكرة عما سيراه حين يصل إنجلترا، أو عن المنزل الذي ينتظره هناك. بل إنه لم يعلم أن أمه لن تسكن البيت نفسه معه، فقد رأى أن من الأفضل له أن يتجاوز الصدمة الأولى قبل إخباره بذلك.

جلس السيد هاڤشم على كرسي ذي مسندين على أحد جانبي النافذة، وفي الجانب الآخر كرسي بمسندين أكبر جلس عليه سدريك ونظر إلى السيد هاڤشم. جلس معتدلًا في كرسيه الكبير، مسندًا رأسه الأجعد إلى ظهر الكرسي المنجد، مقاطعًا ساقيه واضعًا يديه في جيوبه عميقًا بما يشبه أسلوب السيد هوبز. كان يراقب السيد هاڤشم بثبات عندما دخلت أمه الغرفة، وظل ينظر إليه بتفكر واحترام بعد خروجها. ساد صمت قصير بعد خروج السيدة إرول، وبدا سدريك يتفحص السيد هاڤشم، والسيد هاڤشم يتفحص سدريك قطعًا. ولم يعرف بعد ما يقوله رجل محترم لفتى صغير يفوز في السباقات ويرتدي البناطيل القصيرة والجوارب الحمراء على ساقين قصيرتين فلا تتدليان من الكرسي الكبير حين يجلس عليه معتدل الظهر.

لكن سدريك حرره ببدء الحديث، فقال: «أتعلم أنني لا أعلم ما الإيرل؟».

«حقًا؟»، قال السيد هاڤشم.

«أجل. وأظن أن على الصبي أن يعلم إن كان سيكبر ليصبح إيرلًا، أليس كذلك؟»، أجاب سدريك.

«حسن... بلى»، رد السيد هاڤشم.

«هلا... هلا شرحت الأمر لي من فضلك؟»، قال سدريك باحترام. (إن استخدم سدريك كلمات طويلة فهو لا يلفظها لفظًا صحيحًا أحيانًا). «من الذي جعله إيرلًا؟».

«الملك، أو الملكة في المقام الأول. يمنح لقب إيرل عادة لأنه أدى خدمة لمليكه، أو فعلًا عظيمًا»، قال السيد هافشم.

«أوه! إن هذا مثل الرئيس»، قال سدريك.

«حقًا؟ ألهذا ينتخب رئيسكم؟» قال السيد هافشم.

فأجاب سدريك بمرح «أجل. ينتخب الرجل رئيسًا إن كان صالحًا جدًا ويعرف الكثير. فتقام مسيرة للمشاعل وفرق الآلات النحاسية، ويلقي الجميع خطابات. لقد خطر لي دومًا أن أصبح رئيسًا، ولكني لم أحسب قط أن أكون إيرلًا. ولم أعلم شيئًا عن الإيرلات»، قال بشيء من العجلة خشية أن يرى السيد هافشم عدم تمنيه بأن يكون إيرلًا أمرًا وقحًا. «لو عرفت بأمرهم، فلا بد أنني سأتمنى أن أكون واحدًا».

«إنه مختلف بعض الشيء عن الرئيس»، قال السيد هافشم.

«حقًا؟ كيف؟ أليس لديهم مسيرة للمشاعل؟»، سأل سدريك.

قاطع السيد هافشم ساقيه وشبك أنامله بعناية. فقد ظن أن الوقت حان لبيان الأمور بوضوح أكبر.

«إن الإيرل... إن الإيرل شخص مهم للغاية»، قال.

«والرئيس أيضًا!»، عقب سدريك، «وتمتد مسيرة المشاعل لخمسة أميال وتطلق الألعاب النارية، وتعزف الآلات النحاسية! أخذني السيد هوبز لرؤيتها».

واصل السيد هافشم شاعرًا بشيء من زعزعة الأرض تحته «الإيرل دومًا من نسب عريق جدًا...».

«وما ذاك؟»، سأل سدي.

«من عائلة قديمة، بالغة القدم».

«آه!»، قال سدريك وهو يدس يديه في جيوبه أكثر، «أظن أن هذه حال بائعة التفاح قرب المتنزه. إنها من نسب عريق، فهي عجوز جدًا فيفاجئك أنها تستطيع النهوض. أظن عمرها مئة، غير أنها تخرج حين تمطر السماء. أشعر بالأسى لحالها، وكذا يشعر بقية الفتية. كان لدى بِلي وليمز دولار ذات يوم، وطلبت منه أن يشتري منها تفاحًا بقيمة خمسة سنتات كل يوم حتى ينفقه كله. هذا يعني عشرون يومًا، وقد سئم التفاح بعد مرور أسبوع فحسب، ولكن عندئذ، لحسن الحظ، أعطاني رجل خمسين سنتًا واشتريت التفاح بها. إن المرء يشعر بالأسى على الفقراء ولديهم نسب عريق. تقول إن ذاك النسب العريق في عظامها والمطر يجعل حالها أسوأ».

شعر السيد هافشم بالحيرة حين نظر إلى وجه رفيقه الصغير البريء الجاد. «أخشى أنك لم تفهمني تمامًا»، قال موضحًا، «حين قلت «نسبًا عريقًا»، لم أقصد الهرم، بل عنيت أن اسم عائلة كهذه قد عرف في العالم منذ زمن بعيد، ولعل أشخاصًا يحملون ذلك الاسم قد عرفوا وروي عنهم في تاريخ بلادهم لمئات السنوات».

«مثل جورج واشنطن»، قال سدريك، «لقد سمعت باسمه منذ ولادتي، وقد اشتهر قبل ذلك بوقت طويل. يقول السيد هوبز إنه لن يُنسى مطلقًا، ويعود هذا إلى إعلان الاستقلال والرابع من يوليو كما تعلم. فقد كان رجلًا شجاعًا جدًا كما ترى».

قال السيد هاڤشم بوقار «سمي الإيرل الأول لدورنكورت إيرلًا قبل أربعمئة سنة».

«يا سلام، يا سلام! هذا زمن طويل! هل أخبرت الغالية بذلك؟ سيثير هذا اهتمامها كثيرًا، وسنخبرها حين تأتي. فهي تحب سماع الأمور الطريفة دومًا. ما الذي يفعله الإيرل إلى جانب تسميته؟»، قال سدي.

«ساعد الكثير منهم في حكم إنجلترا، وكان بعضهم رجالًا شجعانًا وقاتلوا في معارك في الماضي».

«أود فعل ذلك أنا أيضًا»، قال سدريك، «كان أبي جنديًا، وكان رجلًا شجاعًا جدًا... بقدر شجاعة جورج واشنطن. ولعله كان سيصبح إيرلًا لهذا السبب لولا موته. يسعدني أن الإيرلات شجعان، إنها لميزة للمرء أن يكون شجاعًا. كنت أخاف بعض الأمور قليلًا يومًا... من مثل الظلام كما تعرف، ولكني حين تذكرت الجنود في الثورة وجورج واشنطن... داواني هذا».

«ثمة ميزة أخرى في كون المرء إيرلًا، أحيانًا»، قال السيد هاڤشم ببطء، وقد ثبت عينيه الذكيتين على الصبي الصغير بنظرة غريبة قليلًا، «فبعض الإيرلات يملكون مالًا وفيرًا».

راوده الفضول لأنه تساءل إن كان صديقه الصغير يعرف سطوة المال.

«امتلاك المال أمر جيد. ليتني أملك مالًا وفيرًا»، قال سدي ببراءة.

«حقًا؟ ولم؟»، قال السيد هاڤشم.

فأوضح سدريك «حسن، يمكن للمرء فعل الكثير بالمال. فلدينا بائعة التفاح كما تعلم. لو كنت ثريًا جدًا لاشتريت لها ظُلّة صغيرة تضعها على جوسقها، وموقدًا صغيرًا، ثم سأنقدها دولارًا كل صباح ممطر، حتى تتمكن من البقاء في البيت. ثم أوه! سأمنحها وشاحًا فلا تؤلمها عظامها بشدة. إن عظامها ليست كعظامنا، فهي تؤلمها عندما تتحرك. إن ألم العظام موجع جدًا. لو كنت ثريًا لفعلت ذلك كله من أجلها، ولما آلمتها عظامها كما أحسب».

«احم!»، قال السيد هاڤشم، «وماذا ستفعل أيضًا إن كنت ثريًا؟».

«أوه! سأفعل الكثير من الأمور الرائعة. سأشتري للغالية كل الأشياء الجميلة من مختلف الصنوف، محفظة لإبر الخياطة ومراوح وكشتبانات وخواتم ذهبية، وموسوعة وعربة فلا تضطر لانتظار الحافلات. وإن أحبت ثياب الحرير الوردي فسأشتري لها بعضًا، لكنها تؤثر الأسود. غير أنني سآخذها إلى المتاجر الكبرى، وأخبرها بأن تنظر حولها وتختار بنفسها. ثم ديك...».

«ومن ديك؟»، سأل السيد هاڤشم.

«ديك هو ماسح أحذية»، قال سيده الصغير، وقد تحمس لاهتمامه بخططه المثيرة، «إنه واحد من ألطف الصبيان ماسحي الأحذية الذين رأيتهم. يقف في ناصية شارع في مركز المدينة. لقد عرفته منذ سنوات. مرة حين كنت أصغر خرجت مع الغالية واشترت

لي كرة، وكنت أحملها فارتدت وسط الشارع حيث العربات والخيول، فحزنت وأخذت أبكي، فقد كنت صغيرًا. كنت أرتدي الكلتية، وكان ديك يمسح حذاء رجل، فقال «مرحبًا» وجرى بين الخيول وأمسك الكرة من أجلي ومسحها بمعطفه وأعطاها لي وقال «لا بأس أيها الشاب»، فأعجبت به الغالية وأنا كذلك، ومنذئذ كلما ذهبنا إلى مركز المدينة تحدثنا إليه. فيقول «مرحبًا» وأقول «مرحبًا»، ثم نتحدث قليلًا، ويخبرني بحال العمل. لقد كانت سيئة في الآونة الأخيرة».

«وما الذي تود فعله من أجله؟»، سأل المحامي وهو يحك ذقنه ويبتسم ابتسامة غريبة.

قال الفتى النبيل معتدلًا في كرسيه بنبرة التاجر «حسن، سأشتري حصة جيك».

«من جيك؟»، سأل السيد هاڤشم.

«شريك ديك، وهو أسوأ شريك يمكن أن يحظى به رجل! هذا ما يقول ديك. إنه ليس بموضع فخر للعمل، كما أنه ليس شريفًا، فهو يغش وهذا يثير غضب ديك. سيغضبك ذلك إن كنت تمسح الأحذية بكل جهدك وتحرص على نزاهتك دومًا، وشريكك ليس كذلك البتة كما تعلم. الناس يحبون ديك، لكنهم لا يحبون جيك، ولذا لا يأتون مرتين أحيانًا. فإن كنت ثريًا سأشتري حصة جيك وأمنح ديك لافتة مكتوبًا عليها «المدير»... فهو يقول إن هذه مهمة للغاية، وسأشتري له بعض الثياب الجديدة وبعض الفُرَش،

وأجعله يبدأ بداية حسنة، فهو يقول إن ما يحتاجه أن يبدأ بداية حسنة».

ما من شيء أكثر ثقة وبراءة من الأسلوب الذي قال به السيد الصغير الحكاية القصيرة، مقتبسًا كلام صديقه ديك العامي بإيمان عفوي حسن. ولم يراوده أدنى شك في اهتمام رفيقه الكبير بقدر اهتمامه هو. وفي الحقيقة أخذ السيد هاڤشم يغدو أكثر اهتمامًا، ولكن لعله لم يكن مهتمًا بديك وبائعة التفاح بقدر اهتمامه بهذا السيد الصغير العطوف، الذي امتلأ رأسه تحت شعره الأشقر الأجعد بخطط طيبة النوايا لأصدقائه، ونسي نفسه تمامًا.

فقال «أما من شيء... ما الذي ستجلبه لنفسك إن كنت ثريًا؟».

«الكثير من الأشياء!»، قال الفتى النبيل بحماس، «لكني أولًا سأمنح ماري بعض المال من أجل بريجيت، أختها التي لها اثنا عشر طفلًا وزوج عاطل عن العمل. إنها تأتي هنا وتبكي، وتضع لها الغالية أشياء في سلة، فتبكي ثانية وتقول «بوركت أيتها السيدة الجميلة»، وأظن السيد هوبز يود الحصول على ساعة ذهبية وسلسلة ليتذكرني بها، وغليون مرشومي، ثم أود الحصول على سريّة».

«سريّة؟!»، تعجب السيد هاڤشم.

«مثل مسيرة الجمهوريين»، أوضح سدريك وقد غدا أكثر حماسًا، «سأجلب مشاعل وبزات وغيرها للفتيان ولنفسي أيضًا، وسنسير ونتدرب كما تعلم، هذا ما أرغب به لنفسي إن كنت ثريًا».

فتح الباب ودخلت السيدة إرول.

«أعتذر لاضطراري لتركك وقتًا طويلًا»، قالت للسيد هافشم، «غير أن امرأة فقيرة واقعة في مأزق كبير جاءت لرؤيتي».

قال السيد هافشم «أخبرني هذا الرجل الصغير عن بعض من أصدقائه وما سيفعل من أجلهم إن كان ثريًا».

«بريجيت واحدة من أصدقائه»، قالت السيدة إرول، «وهي من كنت أتحدث إليها في المطبخ. إنها واقعة في ورطة كبيرة لأن زوجها مصاب بالحمى الرثية».

نزل سدريك من كرسيه الكبير.

«أظنني سأذهب لرؤيتها، وأسألها عن حاله. إنه رجل لطيف حين يكون بصحة جيدة، وأنا ممتن له لأنه صنع لي سيفًا خشبيًا ذات مرة، إنه رجل موهوب حقًا»، قال.

خرج من الغرفة ونهض السيد هافشم من كرسيه، وبدا أن في نفسه أمرًا يود الإفصاح عنه.

تردد للحظة ثم قال وهو ينظر إلى السيدة إرول: «التقيت بالإيرل قبل مغادرتي قلعة دورنكورت، وقد أعطاني بعض التعليمات خلال اللقاء. إنه راغب أن يتطلع حفيده بشيء من السعادة إلى حياته المستقبلية في إنجلترا، وإلى تعرفه على الإيرل. وقال إن علي إبلاغ السيد أن التغير في حياته سيجلب له المال والمباهج التي يحبها الأطفال. وإن أفصح عن بعض الرغبات فلا بد أن أحققها له، وأن أخبره أن جده حقق له ما تمنى. أدرك أن الإيرل لم يتوقع شيئًا كهذا،

لكن مساعدة المرأة الفقيرة ستسعد الفتى النبيل، وأظن الإيرل سيستاء إن لم ينل السيد الصغير ما تمنى».

وللمرة الثانية لم يردد كلمات الإيرل نفسها، فقد قال سيده: «دع الصبي يعلم أن بوسعي منحه أي شيء يريده، ودعه يعلم معنى أن يكون حفيد إيرل دورنكورت. اشتر له كل ما يرغب به، ودعه يحتفظ بمال في جيبه، وأخبره أن جده وضعه هناك».

كانت دوافعه بعيدة عن الطيبة، ولو أنه تعامل بطبع أقل حبًا ودفئًا مما يحمله الفتى النبيل، لوقع أذى كبير. وكانت أم سدريك لطيفة للغاية فلم يخامرها شك بسوء، بل ظنت أن هذا قد يعني أن الرجل العجوز الوحيد الذي مات أبناوه يود أن يكون عطوفًا على ابنها الصغير، ويفوز بحبه وثقته. وقد سرها كثيرًا التفكير بأن سدريك سيتمكن من مساعدة بريجيت، وأسعدها أكثر معرفة أن أول ثمرة من ثمار الثروة الغريبة التي هبطت على الصبي الصغير أن يكون بوسعه فعل أمور لطيفة لأولئك الذين يحتاجون العطف. فتدفق لون دافئ إلى وجهها الشاب الجميل.

قالت «أوه! هذا كرم من الإيرل، وسيسعد سدريك! لقد أحب بريجيت ومايكل دومًا، وهما مستحقان. كثيرًا ما تمنيت لو أن بوسعي مساعدتهما أكثر. إن مايكل عامل مجد حين يكون بصحة جيدة، لكنه مريض منذ وقت طويل ويحتاج أدوية غالية وملابس دافئة وطعامًا مغذيًا، ولن يضيع هو وبريجيت ما منح لهما».

وضع السيد هافشم يده النحيلة في جيب صدرته وسحب محفظة

كبيرة. كان على وجهه الذكي نظرة غريبة. بل تساءل عما سيقوله إيرل دورنكورت حين يخبره بأن أولى أمنيات حفيده قد تحققت، وتساءل عما سيراه الرجل العجوز الشكس الأناني المولع بالدنيا.

«لا أدري إن أدركت أن إيرل دورنكورت رجل فاحش الثراء، ويمكنه تحقيق أي رغبة. أظنه سيسعد لمعرفة أن الفتى النبيل قد غنج بتحقيق كل أمنياته، هلا ناديته من فضلك وسمحت لي، فسأعطيه خمسة جنيهات لهؤلاء الناس».

«هذا يعني خمسة وعشرين دولارًا!» قالت السيدة إرول مندهشة، «ستكون هذه ثروة عندهما، أكاد لا أصدق أن هذه حقيقة».

«إنها حقيقة»، قال السيد هافشم بابتسامته الجافة، «لقد طرأ تغير كبير على حياة ابنك، وستكون في يده قوة عظيمة».

«أوه»، قالت الأم، «وما هو إلا صبي صغير، صبي صغير جدًا. كيف أعلمه أن يحسن استخدامها؟ هذا يخيفني قليلًا، يا لسدي الجميل الصغير!».

تنحنح المحامي قليلًا، فقد تأثر قلبه القاسي المشغول بالدنيا لرؤية النظرة الرقيقة الخائفة في عينيها البنيتين.

قال: «أظن يا سيدتي أنني لو حكمت بناء على لقائي بالفتى النبيل هذا الصباح، فإني أرى أن إيرل دورنكورت المقبل يفكر بالآخرين بقدر ما يفكر في نفسه، وصحيح أنه لم يزل طفلًا، لكني أظنه أهلًا للثقة».

ثم ذهبت إلى سدريك وأعادته إلى الغرفة وسمعه السيد هافشم يتحدث قبل دخوله.

«إنها الرثية الالتهابية»، قال، «وهي نوع فظيع من الرثية، وهو يفكر بالإيجار الذي لم يدفع، وتقول بريجيت إن هذا يجعل الالتهاب أسوأ، ولو كان لدى پات بعض الثياب لحصل على عمل في متجر».

بدا وجهه الصغير قلقًا حين دخل، كان حزينًا على بريجيت.

«قالت الغالية إنك تريدني»، قال للسيد هاڤشم، «كنت أتحدث إلى بريجيت».

نظر إليه السيد هاڤشم للحظة، وشعر بشيء من الحرج والحيرة، فقد كان صبيًا صغيرًا كما قالت أمه.

قال: «إن إيرل دورنكورت»، ثم نظر عفويًا إلى السيدة إرول.

جثت أم الفتى النبيل فجأة قربه ووضعت كلتا ذراعيها الرقيقتين حول جسده الصغير.

قالت: «إن إيرل دورنكوت جدك يا سدي، والد أبيك، وهو عطوف جدًا جدًا ويحبك جدًا، ويود أن تحبه لأن أبناءه ماتوا ويتمنى أن تكون سعيدًا وأن تسعد الآخرين. وهو ثري جدًا ويريد أن تحصل على كل ما تريد. وأخبر السيد هاڤشم بذلك، ومنحك قدرًا كبيرًا من المال لك، يمكنك إعطاء شيء منه لبريجيت الآن، ما يكفي لدفع الإيجار وشراء كل شيء لمايكل. أليس هذا رائعًا يا

سدي؟ أليس كريمًا؟»، وقبلت الطفل على خده الممتلئ الذي احمر من دهشته وحماسه.

ونقل نظره بين أمه والسيد هاڤشم.

قال: «أيمكنني الحصول عليه الآن؟ أيمكنني إعطاؤه لها هذه اللحظة؟ لقد ذهبت لتوها».

ناوله السيد هاڤشم المال، وقد كان أوراقًا نقدية خضراء جديدة نظيفة وصنع منها لفافة أنيقة.

أسرع سدي خارجًا من الغرفة.

سمعاه ينادي بريجيت وهو يدخل المطبخ، «انتظري لحظة يا بريجيت، إليك بعض المال، إنه لك ويمكنك دفع الإيجار. أعطاه لي جدي، إنه لك ولمايكل».

«أوه يا سيد سدي!»، بكت بريجيت بصوت ملؤه الذهول، «إنها خمسة وعشرون دولارًا، أين السيدة؟».

«أظنني سأذهب وأوضح لها الأمر»، قالت السيدة إرول.

فخرجت هي أيضًا من الغرفة وظل السيد هاڤشم وحده لبعض الوقت، فسار نحو النافذة ووقف ينظر إلى الشارع متفكرًا. تصور بإيرل دورنكورت العجوز يجلس في مكتبته الكئيبة الفخمة الكبيرة في القلعة، مصابًا بالنقرس ووحيدًا، محاطًا بالفخامة والأبهة، دون أن يحبه أحد حبًا حقيقيًا، لأنه في كل حياته الطويلة لم يحب أحدًا سوى نفسه. فقد كان أنانيًا منغمسًا بذاته ومتكبرًا ومزاجيًا، واهتم بإيرل

دورنكورت ومباهجه فلم يبق لديه وقت للتفكير بالآخرين. كل ثروته وسطوته وكل مزايا اسمه النبيل ورتبته العالية بدت له أمورًا تستغل لإبهاج إيرل دورنكورت وإمتاعه. وها قد أصبح عجوزًا ولم تجلب له كل هذه الإثارة والانغماس بالذات إلا المرض والحنق وبغض العالم الذي يبغضه قطعًا. ورغم ثراء إيرل دورنكورت، ولكن ما من رجل نبيل أكثر بغضًا منه، وما من أحد أكثر وحدة منه. كان بوسعه ملء قصره بالضيوف إن شاء، إذ بوسعه إقامة حفلات عشاء رائعة وحفلات صيد فاخرة. لكنه علم أن الناس الذين سيقبلون الدعوة يخافون تجهم وجهه وسخرية حديثه وتهكمه، إذ كان سليط اللسان ذا طبع شكس يستمتع بالاستهزاء بالناس وإثارة ضيقهم، حين يكون لديه القوة لفعل ذلك، لأنهم حساسون أو متكبرون أو خائفون.

عرف السيد هاڤشم أساليبه القوية القاسية عن ظهر قلب، وفكر به وهو ينظر من النافذة في الشارع الضيق الهادئ. وهناك تبادر إلى ذهنه، في تناقض واضح، وجه الفتى الصغير الوسيم المبتهج يجلس في الكرسي الكبير ويحكي قصته عن أصدقائه، ديك وبائعة التفاح، بأسلوبه الصادق السخي البريء. وفكر بالدخل الهائل والعزب الفاخرة الجميلة، والثروة وقوة الخير والشر التي ستهبط، بمرور الأيام، في اليدين الصغيرتين الممتلئتين للفتى النبيل اللتين يدسهما عميقًا في جيوبه.

«هذا سيحدث فرقًا كبيرًا»، قال لنفسه، «سيحدث فرقًا كبيرًا».

عاد سدريك وأمه بسرعة، وكان سدريك متفائلًا، وجلس على كرسيه بين أمه والمحامي واتخذ واحدة من جلساته الطريفة واضعًا يديه على ركبتيه. كان يتقد سعادة لراحة بريجيت وفرحتها.

«لقد بكت»، قال، «وقالت إنها تبكي سعادة. لم أر أحدًا يبكي من السعادة قبلًا. لا بد أن جدي رجل طيب ولم أعلم أنه رجل طيب هكذا. أن يكون المرء إيرلًا لأكثر بهاء مما ظننت. إنني سعيد، إنني سعيد جدًا أنني سأصبح كذلك».

الفصل الثالث



تعاظم رأي سدريك الجيد كثيرًا في مزايا كون المرء إيرلّا خلال الأسبوع التالي. وصعب عليه أن يدرك أنه ما من شيء يتمناه إلا وتحقق بسهولة، بل ربما يجدر بي القول إنه لم يدرك ذلك البتة. لكنه فهم على الأقل، بعد بضعة أحاديث مع السيد هاڤشم، أن بوسعه نيل كل أمانيه القريبة، وأنه ماضٍ في ذلك ببساطة وبهجة منحت السيد هاڤشم متعة كبيرة. وقبل أسبوع من إبحارهم نحو إنجلترا، فعل الكثير من الأمور الغريبة. بعد ذلك بزمن طويل ظل المحامي يتذكر الصباح الذي ذهبا فيه إلى مركز المدينة معًا لزيارة ديك، والعصرية التي فاجأا فيها بائعة التفاح ذات «النسب العريق»، بوقوفهما أمام جوسقها وإخبارها أنها ستحصل على ظلة وموقد ووشاح، ومبلغ من المال، ما كان رائعًا في نظرها.

«لأن علي الذهاب إلى إنجلترا لأصبح لوردًا»، أوضح سدريك بأسلوب عذب، «ولا أريد أن أفكر بألم عظامك كلما أمطرت. إن عظامي لا تؤلمني، ولا أظنني أعرف قدر وجع العظام لدى امرئ

ما، لكني أشفقت عليك إشفاقًا عظيمًا، وأرجو أن تكوني بحال أفضل».

«إنها بائعة تفاح طيبة جدًا»، قال للسيد هاڤشم وهما يبتعدان تاركين مالكة الجوسق منقطعة الأنفاس، ولا تصدق حظها الرائع. «مرة حين سقطت وجرحت ركبتي، أعطتني تفاحة بلا مقابل، وذكرت صنيعها دومًا. فالمرء يتذكر من أحسنوا إليه دومًا كما تعلم».

لم يبدر في عقله البريء الساذج الصغير وجود أشخاص ينسون الإحسان.

كان اللقاء مع ديك مثيرًا، فقد واجه متاعب جمة مع جيك، وكان حزينًا حين التقياه. ودهش دهشة عظيمة عندما قال له سدريك بهدوء إنهما جاءا لإعطائه ما بدا شيئًا رائعًا عنده، وسيسوي كل متاعبه تمامًا، فعقدت الدهشة لسانه. كان أسلوب الفتى النبيل في الإفصاح عن هدف زيارته بسيطًا بلا تبجح. وأعجب السيد هاڤشم كثيرًا بمباشرته حين وقف قربه وأنصت. فتح ديك عينيه وفمه دهشة لسماع أن صديقه أصبح لوردًا وسيكون إيرلًا إن عاش حياة طويلة، فوقعت قبعته. وحين التقطها قال عبارة غريبة، أو هذا ما ظنه السيد هاڤشم، غير أن سدريك سمعها قبلًا.

قال «وا عجبي! ما الذي تعطيه لنا؟» هذا أحرج السيد الصغير قليلًا لكنه تمالك نفسه بشجاعة.

«ظن الجميع أن الأمر ليس صحيحًا في البدء»، قال، «وظن السيد هوبز أنني أصبت بضربة شمس. لم أحسب أنني سأحب

هذا، لكني أحبه أكثر الآن وقد اعتدته. الإيرل الآن هو جدي، ويريد لي أن أفعل كل ما أريد، فهو كريم جدًا وهو إيرل، وقد أرسل لي مالًا كثيرًا مع السيد هافشم، وجلبت لك شيئًا منه لتشتري حصة جيك».

وانتهى الأمر بأن اشترى ديك حصة جيك فعلًا، ووجد نفسه صاحب العمل وبعض الفُرش الجديدة ولافتة وثياب مدهشة. لم يصدق حظه السعيد أكثر مما فعلت بائعة التفاح ذات النسب العريق، وخشي أن يستيقظ في لحظة أو أخرى. ولم يبد أنه يدرك شيئًا حتى مد سدريك يده ليصافحه قبل ذهابه.

«إلى اللقاء إذن»، قال، ورغم أنه حاول التحدث بثبات غير أن صوته تهدج قليلًا وطرف بعينيه البنيتين الكبيرتين. «وأرجو أن يمضي العمل على ما يرام. أنا آسف لأنني سأتركك، ولكن لعلي أعود ثانية حين أغدو إيرلًا، وأرجو أن تكاتبني، لأننا كنا صديقين مقربين دومًا. وإن أردت الكتابة لي فهذا عنواني لترسل إليه الرسالة»، وأعطاه قصاصة ورق، «ولم يعد اسمي سدريك إرول، بل الفتى النبيل، فالوداع يا ديك».

طرف ديك بعينيه أيضًا غير أنهما بدتا مخضلتين عند الأهداب. لم يكن ماسح أحذية متعلمًا، ووجد صعوبة في التعبير عن شعوره عندئذ وإن حاول، ولعله لم يحاول لهذا السبب، بل اكتفى بطرف عينيه وابتلع غصة في حلقه.

«ليتك لا تسافر»، قال بصوت أجش، ثم طرف بعينيه ثانية.

ونظر إلى السيد هافشم ومس قبعته، «شكرًا لك يا سيدي لمرافقته إلى مركز المدينة ولما فعلت، إنه... إنه فتى مدهش». وأضاف، «سأذكره كثيرًا. إنه فتى صغير رائع، فتى فريد».

وحين ذهبا نظر إليهما نظرة حزينة، ولم تزل في عينيه غشاوة وفي حلقه غصة وهو يرى الفتى الرشيق الصغير يمشي جذلًا إلى جانب مرافقه الطويل الصارم.

أمضى اللورد الصغير من وقته ما استطاع مع السيد هوبز في المتجر حتى يوم سفره. خيم الحزن على السيد هوبز، فقد كان كئيب المزاج حين جلب له صديقه الصغير مبتهجًا هدية السفر المؤلفة من الساعة والسلسلة الذهبيتين، وصعب على السيد هوبز تقبلها جيدًا، فقد وضع العلبة على ركبته البدينة، ونفر أنفه بعنف بضع مرات.

«مكتوب عليها شيء ما»، قال سدريك، «داخل العلبة. قلت للرجل بنفسي ماذا يكتب. «إلى السيد هوبز من أقدم أصدقائه اللورد النبيل، تذكرني كلما رأيت هذه»، لا أريدك أن تنساني».

لكن السيد هوبز نفر أنفه بصوت عال ثانية.

«لن أنساك»، قال بصوت أجش قليلًا مثلما فعل ديك، «ولا تذهب وتنسني حين تتوسط الأرستقراطيين البريطانيين».

«لن أنساك أيًا كانوا من أتوسطهم»، أجاب اللورد الصغير، «لقد أمضيت أسعد أوقاتي معك، بعضًا منها على الأقل. أرجو أن تأتي لرؤيتي في وقت ما. أنا واثق أن جدي سيسر كثيرًا، ولعله يكتب إليك ويطلب منك القدوم حين أحدثه عنك. لن تمانع في

كونه إيرلًا، أليس كذلك؟ أعني أنك لن تبقى بعيدًا لأنه إيرل إن دعاك للقدوم؟».

«سآتي لرؤيتك»، أجاب السيد هوبز بلطف.

وهكذا اتفقا على أن يأتي ويمضي بضعة أشهر في قلعة دورنكورت إن تلقى دعوة من الإيرل، وأنه سيضع جانبًا كبرياءه الجمهورية ويحزم متاعه في الحال.

انتهت الاستعدادات في النهاية، وجاء اليوم الذي أخذت فيه حقائب السفر إلى الباخرة، وحانت الساعة حين وصلت العربة أمام الباب. ثم طغى على الصبي الصغير إحساس غريب بالوحدة. حبست أمه نفسها في غرفتها لبعض الوقت، وحين نزلت الدرج كانت عيناها كبيرتين ومخضلتين، وفمها الحلو يرتجف. ذهب إليها سدريك وانحنت عليه وطوقها بذراعيه، وتبادلا القبل. لقد عرف أن أمرًا ما جعلهما حزينين، رغم أنه لم يعلم ماهيته، غير أن فكرة رقيقة صغيرة صعدت إلى شفتيه.

«لقد أحببنا هذا المنزل أيتها الغالية، أليس كذلك؟»، قال، «وسنحبه دومًا، صحيح؟».

«أجل، أجل. أجل يا عزيزي»، ردت بصوت خفيض عذب.

ثم صعدوا العربة جميعًا، وجلس سدريك ملتصقًا بها، وحين نظرت للخلف من النافذة، نظر إليها وربت على يدها وأمسكها بقوة.

ثم، كأن الأمر حدث في الحال، صعدوا إلى الباخرة وسط ضجيج وصخب عاليين، فقد كانت العربات تصل وتنزل المسافرين. والمسافرون يغمرهم الحنق على الأمتعة التي لم تصل وهددت بتأخير كبير، وكدست الصناديق الكبيرة والحقائب وسحبت، والبحارة يفكون الحبال ويسرعون في الغدو والرواح. والضباط يلقون الأوامر، والسيدات والسادة والأطفال والمربيات يصعدون ظهر الباخرة، بعضهم ضاحك وجذل، وبعضهم صامت وحزين. وهنا وهناك اثنان أو ثلاثة يبكون ويجففون عيونهم بمناديلهم. وجد سدريك شيئًا يشغل نفسه به في كل جانب، فقد نظر إلى كومة الحبال، وإلى الأشرعة الملفوفة، وإلى الصواري العالية التي تكاد أن تلامس السماء الزرقاء الحارة، وأخذ يعد الخطط للحديث مع البحارة للحصول على معلومات عن القراصنة.

وفي نهاية المطاف وقف مستندًا إلى حاجز الطبقة العليا من ظهر الباخرة يراقب الاستعدادات النهائية، مستمتعًا بحماس البحارة وعمال رصيف المرفأ وهتافهم، وجذب اهتمامه صخب خفيف في مجموعة ليست ببعيدة عنه. كان أحدهم يشق طريقه على عجل خلال هذه الجماعة ويتجه نحوه، كان صبيًا يحمل شيئًا أحمر في يده. إنه ديك، وقد صعد إلى سدريك منقطع النفس.

«لقد جريت طوال الطريق»، قال، «جئت لرؤيتك. كان العمل ممتازًا! فجلبت لك هذا مما جنيته البارحة. يمكنك استخدامه حين تكون مع علية القوم. لقد أضعت غلافه وأنا أحاول المرور عبر هؤلاء الرجال في الأسفل، إذ لم يسمحوا لي بالصعود. إنه منديل».

قال كل شيء دفعة واحدة وفي جملة واحدة، ثم رن الجرس فقفز مبتعدًا قبل أن يتسنى لسدريك فرصة للحديث إليه.

«إلى اللقاء!»، قال لاهثًا، «استخدمه حين تكون بين علية القوم»، وانطلق كالسهم وذهب.

ورأوه بعد لحظات يجهد للمرور عبر الحشد في الطبقة السفلى، ويندفع إلى الشاطئ قبل أن يسحب سلم السفينة، ووقف على رصيف المرفأ ولوح بقبعته.

حمل سدريك منديله في يده، كان من الحرير الأحمر القاني مزين برؤوس خيول وحدواتها بنفسجية اللون.

كان في السفينة الكثير من الهرج والمرج والفوضى، وأخذ الناس على رصيف المرفأ يهتفون لأصدقائهم، ومن على سطح السفينة يردون عليهم هتافًا.

«إلى اللقاء! إلى اللقاء! إلى اللقاء يا صديقي القديم!»، بدا الجميع يقولون ذلك «لا تنسونا، اكتبوا لنا عند وصولكم إلى ليفربول. إلى اللقاء! إلى اللقاء!».

مال الفتى النبيل إلى الأمام ولوح بالمنديل الأحمر.

«إلى اللقاء يا ديك!»، صاح بحماس، «شكرًا لك وإلى اللقاء يا ديك!».

وابتعدت الباخرة الكبيرة، وابتهج الناس ثانية، وجذبت أم سدريك الخمار على عينيها. أما على الشاطئ لم تزل الفوضى مستمرة،

لكن ديك لم ير شيئًا سوى ذاك الوجه المشرق الطفولي والشعر اللامع الذي سطعت عليه الشمس وحركه النسيم، ولم يسمع شيئًا سوى الصوت الطفولي المحب يقول «إلى اللقاء يا ديك!»، حين أبحر الفتى النبيل ببطء مبتعدًا عن مسقط رأسه إلى أرض أسلافه المجهولة.

الفصل الرابع



عرف سدريك من أمه أثناء الرحلة أنها لن تسكن معه البيت نفسه، وبعد أن فهم الأمر اغتم كثيرًا. فرأى السيد هاڤشم أن الإيرل كان مصيبًا في إجراء الترتيبات لتكون أمه قريبة منه، وتراه كثيرًا، إذ من الجلي أنه لن يحتمل الفراق لولا ذلك. لكن الأم أقنعت الفتى الصغير بحب وعذوبة، وجعلته يدرك أنها ستكون قريبة منه جدًا، وسرعان ما كف عن الخوف من الفراق الحقيقي.

«إن بيتي ليس ببعيد عن القلعة يا سدي»، كررت قولها كلما فتح الموضوع، «بل يبعد عن بيتك قليلًا، ويمكنك القدوم دومًا ورؤيتي كل يوم، وسيكون عندك الكثير مما تخبرني به! وسنكون سعيدين معًا! إنه مكان جميل، أخبرني عنه أبوك كثيرًا، فقد أحبه للغاية، وستحبه أنت أيضًا».

«لو كنت معي لأحببته أكثر»، قال اللورد الصغير، بتنهيدة قصيرة عميقة.

لم يستطع كبح الإحساس بالحيرة لأمر غريب كهذا يتسبب في

سكن أمه في بيت وسكنه في آخر. في الحقيقة رأت السيدة إرول أنه يجدر به ألا يعرف الداعي لهذا الترتيب.

«أفضّل ألا نخبره»، قالت للسيد هافشم، «فلن يفهم تمامًا، بل سيصدم ويتألم فحسب، وأنا واثقة أن مشاعره نحو الإيرل ستكون طبيعية ومحبة أكثر مما لو عرف أن جده يبغضني بشدة. لم يلق كراهية أو قسوة يومًا، وستكون ضربة قاسية له أن يعرف أن أحدًا ما يكرهني. إنه محب بطبعه، وأنا غالية عنده كثيرًا! من الأفضل له ألا يعرف إلا حين يكبر أكثر، كما أن هذا أفضل بكثير من أجل الإيرل. إذ سينشيء هذا حاجزًا بينهما، وإن لم يكن سدي سوى طفل».

فعرف سدريك فقط أن ثمة داعيًا غامضًا لهذا الترتيب، وسببًا لم يقل له كي يفهمه، ولكنه سيشرح له حين يكبر. كان محتارًا، لكنه في النهاية لم يكن مهتمًا كثيرًا بالسبب، وبعد أن تحدث مع أمه، التي هدأته وأظهرت له الجانب المشرق من الصورة، أخذ الجانب المعتم يبهت شيئًا فشيئًا. رغم أن السيد هافشم رآه بين الفينة والأخرى يجلس بهيئة غريبة عتيقة الطراز، يراقب البحر بوجه حزين جدًا، وسمع زفرته غير الطفولية تنبعث من شفتيه أكثر من مرة.

«لا يعجبني ذلك»، قال مرة وهو يخوض أحد أحاديثه الوقورة مع المحامي، «لست تدري مبلغ بغضي لذلك، غير أن في العالم الكثير من المشكلات الكبيرة، وعلى المرء احتمالها. هذا ما تقوله ماري وقد سمعت السيد هوبز يقول ذلك أيضًا. والغالية تريدني أن أحب العيش مع جدي، لأن كل أبنائه ماتوا كما ترى، وهذا مؤسف

للغاية. إن هذا يجعلك تأسى على حال الرجل، إن مات كل أبنائه، وقتل أحدهم فجأة».

كانت الهيئة الحكيمة للورد الصغير حين يخوض حديثًا من الأمور التي أبهجت من يعرفه، إلى جانب تعليقات الراشدين العرضية التي يقولها والبراءة المفرطة والجدية في وجهه الطفولي الممتلئ، لا تقاوم. فقد كان فتى أجعد الشعر متوردًا وسيمًا، وعند جلوسه مطوقًا ركبته بيده الممتلئة وكلامه بكثير من الجاذبية، كان مصدر تسلية عظيمة لمستمعيه. أخذ السيد هاڤشم شيئًا فشيئًا يشعر بقدر كبير من المتعة والفرح من رفقته.

«وستحاول أن تحب الإيرل إذن»، قال.

فأجاب اللورد الصغير «أجل، إنه قريبي، وعلى المرء أن يحب أقرباءه طبعًا، كما أنه كان كريمًا معي. حين يفعل امرؤ الكثير من الأمور من أجلك، ويريدك أن تحصل على كل ما تتمنى، فستحبه وإن لم يكن قريبك؛ ولكن إن كان قريبك وفعل ذلك، فستحبه أكثر بلا شك».

سأل السيد هاڤشم «فهل تظنه سيحبك؟».

«حسن»، أجاب سدريك، «أظنه سيفعل، لأنني قريبه أيضًا كما تعلم، وأنا ابن ابنه، وحسن، ألا ترى... لا بد أن يحبني وإلا لما أراد لي أن أحصل على كل ما تمنيت، ولما أرسلك إلي».

«أوه! هكذا إذن، صحيح؟»، عقب المحامي.

«أجل، هكذا، ألا تظن الأمر كذلك أيضًا؟ يحب الرجل حفيده طبعًا».

تعافى أولئك الذين أصيبوا بدوار البحر سريعًا، وعادوا إلى سطح الباخرة لأخذ قسط من الراحة على كراسي الباخرة واستمتعوا. وبدأ الجميع يعرفون القصة الرومانسية للورد النبيل، واهتم الجميع بالفتى الصغير، الذي جرى في أرجاء الباخرة أو مشى مع أمه أو المحامي العجوز الطويل، أو تحدث إلى البحارة. وأحبه الجميع، فعقد صداقات مع الجميع. لقد كان دومًا سريعًا في عقد الصداقات. وحين صعد الرجال ظهر السفينة أو نزلوا منها سمحوا له بالمشي معهم، فقد مشى بخطى متينة رجولية، ورد على دعاباتهم بفرح وجذل. وحين تحدثت السيدات إليه علت ضحكات في المجموعة التي يتوسطها، وحين لعب مع الأطفال، شعروا بكثير من المتعة. كان لديه أعز الأصدقاء بين البحارة، فقد سمع قصصًا مذهلة عن القراصنة وحطام السفن والجزر المهجورة، وتعلم جدل الحبال وتركيب دمى السفن، واكتسب قدرًا من المعلومات المدهشة للغاية حول «الأشرعة العليا»، و«الأشرعة الرئيسة». بل صار لحديثه نكهة بحرية بعض الأحيان، ومرة جعل الضحكات تتعالى وسط مجموعة من السيدات والسادة بقوله عبارة فاتنة جدًا: «أقسم بضلوعي إنه ليوم بارد!».

وفوجئ لرؤيتهم يضحكون. لقد التقط هذا التعبير البحري من بحار عجوز اسمه جيري، قص عليه حكايات قيل فيها هذا التعبير كثيرًا. وتبين مما قصه جيري من مغامرات، أنه ذهب في ألفين

أو ثلاثة آلاف رحلة، وقد قضي عليه أن تتحطم سفينته في كل مرة على جزيرة مأهولة بكثافة بآكلي لحوم بشر متعطشين للدماء. وتبين من المغامرات نفسها أيضًا أنه كثيرًا ما كاد يشوى ويأكل وسلخت فروة رأسه خمس عشرة مرة أو عشرين.

«وهذا سبب صلعه»، أوضح اللورد النبيل لأمه، «فبعد أن تسلخ فروة رأس المرء لن ينمو الشعر ثانية. ولم ينم شعر جيري ثانية بعد المرة الأخيرة، حين سلخ فروته ملك پاروماتشاوويكن بسكين صنعت من جمجمة زعيم الووپسلممكي. يقول إنها كانت إحدى أصعب المرات، وخاف كثيرًا فانتصب شعر رأسه حين شحذ الملك سكينه، ولم ينزل ثانية، ويضعها الملك على تلك الهيئة الآن فتشبه فرشاة الشعر. لم أسمع قط بمثل التجارب التي عاشها جيري! أود كثيرًا أن أحكيها للسيد هوبز!».

أحيانًا حين يكون الجو سيئًا، ويظل المسافرون في الداخل في الصالة، يقنعه صحبه الراشدون بأن يقص عليهم شيئًا من «تجارب» جيري، فيجلس ويحكيها ببهجة وحماس كبيرين، وما من مسافر في أي باخرة محيط تعبر المحيط الأطلسي أكثر شعبية من اللورد النبيل الصغير. فقد كان دومًا مستعدًا لبذل قصارى جهده بطيبة خاطر وببراءة بالغة بأن يضيف إلى التسلية العامة، وكان في عدم إدراكه لمنزلته الطفولية سحرًا.

قال لأمه: «إن قصص جيري تسليهم كثيرًا. أما عني، وأرجو أن تعذريني أيتها الغالية، فإنني لا أظنها حقيقية كلها، ليس بأنها لم

تحدث لجيري، بل لأنها حدثت كلها لجيري. حسن، إن هذا الغريب جدًا كما تعلمين، ولعله ينسى أحيانًا ويخطئ قليلًا، لأن فروة رأسه سلخت كثيرًا. إن سلخ الفروة مرات كثيرة يجعل المرء نسّاء».

مر على وداعه لصديقه ديك أحد عشر يومًا قبل وصوله إلى ليفربول، وفي الليلة الثانية عشرة وقفت العربة التي أخذته هو وأمه والسيد هاڤشم من المحطة أمام بوابة بيت الصيد. لم يروا المنزل جيدًا في العتمة، ولم ير سدريك إلا أن فيه مدخلًا للعربات تحت أشجار مقوسة، وبعد أن درجت العربة مبتعدة قليلًا للخروج من هذا المدخل رأى بابًا مفتوحًا وحزمة ضوء ساطع خلاله.

جاءت ماري معهم لخدمة سيدتها، وقد وصلت البيت قبلهم. حين نزل سدريك من العربة رأى خادمًا أو اثنين يقفان في الردهة الواسعة المضيئة، وماري تقف عند الباب.

قفز إليها اللورد النبيل بصيحة جذل قصيرة.

«أجئت إلى هنا يا ماري؟»، قال، «إنها ماري أيتها الغالية»، وقبل الخادمة على خدها الأحمر الخشن.

«يسعدني وجودك هنا يا ماري»، قالت لها السيدة إرول بصوت خفيض، «إن رؤيتك تبعث على الراحة، فقد أذهبت الغربة»، ومدت يدها الصغيرة التي ضغطتها ماري مشجعة. فهي تعرف كيف تبدو هذه الغربة عند هذه الأم الشابة التي تركت بلادها وتوشك على الانفصال عن طفلها.

نظر الخادمان الإنجليزيان بفضول إلى الأم والصبي. إذ سمعا

أقاويل عن كليهما، وعرفا مبلغ غضب الإيرل العجوز، وسبب سكن السيدة إرول في بيت الصيد وسكن ابنها الصغير في القلعة، وعرفا بأمر الثروة الطائلة التي سيرثها، وعن الجد القاسي العجوز وإصابته بالنقرس ومزاجه الشكس.

«سيعاني وقتًا عصيبًا معه، ذاك الفتى المسكين»، قالا لبعضهما.

لكنهما لم يعلما شيئًا عن طبع اللورد الصغير الذي حل بينهم، ولم يدركا تمامًا شخصية إيرل دورنكورت المستقبلي.

خلع معطفه كأنما اعتاد فعل أموره بنفسه، وأخذ ينظر إليهما. ونظر إلى الردهة الواسعة وإلى اللوحات وقرون الوعول والتحف التي زينت الردهة، وبدت غريبة عليه لأنه لم ير قط أشياء كهذه في مسكن خاص.

قال «إنه بيت جميل أيتها الغالية، أليس كذلك؟ أنا سعيد لأنك ستعيشين هنا، فهو بيت كبير جدًا».

وقد كان بيتًا كبيرًا إن قورن بالمنزل في الشارع الحقير في نيويورك، وكان جميلًا ومبهجًا. أخذتهما ماري إلى الأعلى إلى غرفة نوم منيرة فيها ستائر من قماش الشيت حيث النار متقدة في المدفأة، وقطة فارسية بيضاء بياض الثلج تنام بدلال على فرو بساط المصطلى.

«إن مدبرة المنزل في القلعة يا سيدتي قد أرسلتها اليك»، أوضحت ماري، «وهي سيدة طيبة القلب وأعدت كل شيء من أجلك. رأيتها للحظات قليلة، وكانت محبة للنقيب يا سيدتي، وحزنت عليه وقالت

أن أخبرك إن القطة الكبيرة النائمة على البساط قد تجعل الغرفة شبيهة بالمنزل عندك. لقد عرفت النقيب إرول في طفولته، وتقول إنه كان صبيًا رائعًا وسيمًا، وشابًا رائعًا يفرح الجميع بكلامه الطيب، كبارًا وصغارًا. وقلت لها لقد ترك صبيًا مثله يا سيدتي، بل أروع فتى صغير على وجه البسيطة».

ثم نزلوا بعد أن تهيؤوا إلى غرفة أخرى كبيرة منيرة، سقفها واطئ وأثاثها فاخر منقوش بنقوش جميلة، والكراسي عميقة لها ظهور عالية ضخمة، وفيها أرفف وخزائن غريبة فيها تحف غريبة جميلة. وأمام النار وضع جلد نمر كبير، وكرسي ذو مسندين على كل جهة. استجابت القطة البيضاء المرفهة لتمسيد الفتى النبيل ومشت قربه بخيلاء كأنها تنوي عقد صداقة معه. سر سدريك كثيرًا ووضع رأسه على رأسها، واستلقى يربت عليها، دون أن ينتبه إلى ما يقوله السيد هافشم وأمه.

كانا في الحقيقة يتحدثان بصوت خفيض نوعًا ما، وبدت السيدة إرول شاحبة وقلقة قليلًا.

قالت «ليس عليه الذهاب الليلة، أسيبقى معي الليلة؟».

«أجل»، رد السيد هافشم بالنبرة الخفيضة نفسها، «ليس عليه الذهاب الليلة. سأذهب إلى القلعة فور أن نتناول عشاءنا، وأخبر الإيرل بوصولنا».

نظرت السيدة إرول إلى سدريك، الذي كان مستلقيًا بهيئة جميلة خلية البال على الجلد الأسود والأصفر، ولمعت النار على وجهه

الصغير المحمر الجميل، وعلى الشعر الأجعد المنساب المنثور على البساط. وكانت القطة الكبيرة تخرخر برضا ناعس، فقد أحبت لمسات المداعبة لليد اللطيفة على فرائها.

ابتسمت السيدة إرول. «لا يعرف سيادته ما الذي يأخذه مني»، قالت بشيء من الحزن، ثم نظرت إلى المحامي، «هلا أخبرته من فضلك أنني أفضل ألا آخذ المال؟»، قالت.

«المال!»، تعجب السيد هاڤشم، «لست تعنين الدخل الذي قرر منحك إياه!».

فردت ببساطة شديدة «بلى، أظن أنني لا يجدر بي أخذه. سأضطر لقبول المنزل، وأشكره على ذلك، لأن هذا يمكنني من البقاء بقرب طفلي، لكني أملك مالًا قليلًا -ما يكفيني لأعيش- وأفضل ألا آخذ المبلغ الآخر. فمادام يبغضني، سأشعر قليلًا كأنني أبيع له سدريك. إنني أتخلى عنه لأنني أحبه كثيرًا فأنسى نفسي من أجل صالحه، ولأن أباه تمنى ذلك».

حك السيد هاڤشم ذقنه وقال: «هذا غريب جدًا، ولن يتفهم الأمر».

«أظنه سيتفهمه حين يفكر به»، قالت، «لست بحاجة للمال حقًا، ولماذا أقبل الرفاهية من الرجل الذي يكرهني كثيرًا لحد أخذه ابني مني؟».

نظر السيد هاڤشم متفكرًا لبضع دقائق.

«سأبلغه برسالتك»، قال تاليًا.

ثم أحضر العشاء وجلسوا معًا، واتخذت القطة الكبيرة مجلسًا لها على كرسي قرب كرسي سدريك وخرخرت أثناء الطعام بدلال.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، حين ذهب السيد هاڤشم إلى القلعة، اقتيد من فوره إلى الإيرل. ووجده جالسًا قرب النار في كرسي فخم مريح، وقدمه على مسند للقدمين. نظر إلى المحامي بحدة من تحت حاجبيه الكثين، لكن السيد هاڤشم لم يتمكن من رؤية ذلك، فقد كان قلقًا مضطربًا في سره رغم تظاهره بالهدوء.

«حسن، ها قد عدت يا هاڤشم، أليس كذلك؟ ما الأخبار؟»، قال.

«إن اللورد الصغير وأمه في بيت الصيد. لقد احتملا الرحلة جيدًا وهما بصحة ممتازة»، أجاب السيد هاڤشم.

همهم الإيرل بصوت نافد الصبر قليلًا وحرك يده بانفعال، وقال بفظاظة: «يسعدني سماع ذلك. الأمور حسنة حتى الآن. أرح نفسك واشرب كأسًا من النبيذ واجلس، ماذا أيضًا؟».

«سيبقى سيادته مع أمه هذه الليلة، وسأحضره إلى القلعة غدًا».

كان مرفق الإيرل مستندًا على مسند كرسيه، فرفع يده وغطى بها عينيه، وقال: «حسن. تابع، تعلم أنني أخبرتك ألا تكتب لي عن الأمر، ولست أعلم شيئًا عنه البتة. أي نوع من الفتيان هو؟ لست أهتم للأم، أي نوع من الصبيان هو؟».

شرب السيد هافشم قليلًا من كأس النبيذ الذي صبه لنفسه وجلس حاملًا إياها في يده.

«يصعب الحكم على طبع طفل في السابعة»، قال بحذر.

كانت كبرياء الإيرل عظيمة، فرفع نظره بسرعة وقال كلمة قاسية

«أحمق، أليس كذلك؟» قال، «أو صغير أخرق؟ إن دمه الأمريكي يظهر ذلك، أليس صحيحًا؟».

«لا أظنه آذاه يا سيدي»، أجاب المحامي بأسلوبه الجاف المنمق، «لست أعلم الكثير عن الأطفال، لكني أراه صبيًا رائعًا قليلًا».

كان أسلوبه في الحديث منمقًا ومتحفظًا دومًا، لكنه جعله أكثر تحفظًا من المعتاد قليلًا. فقد تصور تصورًا ذكيًا أن من الأفضل أن يحكم الإيرل بنفسه، وأن يلتقي حفيده لأول مرة دون حكم مسبق.

«أهو معافى وحسن النشأة؟»، سأل الإيرل.

«يبدو معافى جدًا، ونشأته حسنة»، أجاب المحامي.

«معتدل القوام وحسن الهيئة؟»، سأل الإيرل.

ارتسمت ابتسامة صغيرة جدًا على شفتي السيد هافشم الرفيعتين، فقد تراءت أمام عينيه الصورة التي تركها في بيت الصيد، جسد الصبي الرشيق الجميل مستلق على جلد النمر براحة وهناءة، وشعره المنساب متناثر على البساط، ووجه الولد المشرق المتورد.

«أظنه ولدًا وسيمًا يا سيدي، مثل الصبيان»، قال، «رغم أنني لا أستطيع الحكم. لكن بوسعي القول إنك ستجده مختلفًا بعض الشيء عن الأطفال الإنجليز».

«لا يخامرني شك في ذلك»، دمدم الإيرل وقد استولى عليه ألم النقرس، «هؤلاء الأطفال الأمريكيون ليسوا إلا مجموعة من المتسولين الرقيعين الصغار، لقد سمعت هذا كثيرًا».

«إنها ليست صفاقة في وضعه»، قال السيد هاڤشم، «لا أستطيع وصف الاختلاف. إلا أنه قد عاش مع الكبار أكثر من عيشه مع الصغار، والاختلاف يبدو مزيجًا من النضج والطفولة».

«صفاقة أمريكية!»، اعترض الإيرل، «لقد سمعت بذلك قبلًا، إنهم يسمونها نضجًا مبكرًا وحرية. غير أنها ليست إلا أخلاقًا سيئة وصفاقة ووقاحة!».

شرب السيد هاڤشم المزيد من النبيذ. لم يجادل سيده إلا نادرًا، ولكنه لم يفعل ذلك قط إن كانت ساق سيده تؤلمه من النقرس، وفي أوقات كهذه من الأفضل دومًا تركه وشأنه. فخيم الصمت للحظات قليلة، لكن السيد هاڤشم كسره معقبًا: «لدي رسالة أبلغها لك من السيدة إرول».

«لا أريد رسائلها!»، دمدم سيادته، «كلما سمعت عنها أقل كان أفضل».

«لكنها رسالة مهمة جدًا»، أوضح المحامي، «إنها تفضل ألا تقبل الدخل الذي اقترحت تخصيصه لها».

بدت الدهشة على الإيرل.

«ما معنى ذلك؟»، صاح، «ما معنى ذلك؟».

كرر السيد هاڤشم كلامه:

«تقول إنه ما من داع لذلك، وإن العلاقة بينكما ليست ودية...».

«ليست ودية؟»، قال الإيرل بفظاظة، «لا بد من القول إنها ليست كذلك! إنني أكره التفكير بها! أمريكية جشعة حادة الصوت! لا أود رؤيتها!».

قال السيد هاڤشم «لا يمكن وصفها بالجشعة يا سيدي، فهي لم تطلب شيئًا، بل إنها لم تقبل المال الذي عرضته عليها».

«كل هذا للضغط»، قال السيد النبيل مقرعًا، «إنها تود تملقي حتى أراها، وتظن أنني سأعجب بطباعها، لن أفعل! إنه استغلال أمريكي فحسب! لن أجعلها تعيش مثل متسولة عند باب حديقتي. ما دامت أم الصبي، فلا بد لها من الحفاظ على مكانتها، وستفعل، ستحصل على المال، سواء أأعجبها ذلك أم لم يعجبها!».

«لن تنفقه»، قال السيد هاڤشم.

«لا أبالي إن فعلت أم لم تفعل!»، انفجر السيد، «سيرسل إليها، ولن تخبر الناس بأنها تعيش مثل المتسولين لأنني لم أفعل لها شيئًا! تود أن توحي للصبي برأي سيء عني! أحسبها أوغرت صدره سلفًا!».

«كلا»، قال السيد هاڤشم، «ولدي رسالة أخرى ستثبت لك أنها لم تفعل ذلك».

«لا أريد سماعها!»، لهث الإيرل منقطع الأنفاس غضبًا وانفعالًا وتألمًا من النقرس.

لكن السد هاڤشم قالها:

«تطلب إليك ألا يسمع اللورد الصغير شيئًا يجعله يفهم أن فصله عنها بسبب تحاملك عليها، فهو يحبها جدًا. وتوقن أن هذا سيخلق حاجزًا بينكما، وتقول إنه لن يستوعب الأمر، وقد يجعله ذلك يخشاك بطريقة ما، أو على الأقل يشعره بحب أقل تجاهك. لقد أخبرته أنه صغير على فهم السبب، لكنه سيعرفه حين يكبر، وتتمنى ألا يكون لذلك أثر في لقائكما الأول».

غاص الإيرل في كرسيه، ولمعت عيناه الهرمتين الصارمتين العميقتين تحت حاجبيه الكثين.

«هيا!»، قال ولم يزل لاهثًا، «هيا! لست تقصد أن الأم لم تخبره، أليس كذلك؟».

«ولا كلمة يا سيدي»، أجاب المحامي ببرود، «يمكنني أن أؤكد لك ذلك. إن الطفل مهيأ للتصديق بأنك أكثر الأجداد حبًا وألفة. لا شيء، لا شيء البتة، قيل له ليخامره الشك في كمالك. وبما أنني نفذت أوامرك بالتفصيل حين كنا في نيويورك، فهو يعتبرك آية في الكرم».

«حقًا، إه؟»، قال الإيرل.

«أقسم لك بشرفي إن انطباع اللورد الصغير سيعتمد كليًا عليك.

وإن سمحت لي ببعض الحرية لأقترح أمرًا أظنك ستنجح معه أكثر لو أخذت الحيطة بألا تتحدث عن أمه بسوء».

«أف!»، قال الإيرل، «الولد في السابعة من عمره فحسب!».

«لقد أمضى هذه السنوات السبع في كنف أمه، ولها كل حبه»، أجاب السيد هاڤشم.

الفصل الخامس



درجت العربة التي تحمل الفتى النبيل والسيد هاڤشم على الجادة الطويلة المؤدية إلى القلعة ساعة الأصيل. أمر الإيرل بأن يصل حفيده لتناول العشاء معه، ولسبب ما لا يعلمه أحد سواه، أمر أيضًا أن يرسل الصبي وحده إلى الغرفة التي ينوي استقباله فيها. حين درجت العربة في الجادة، جلس الفتى النبيل متكئًا بارتياح على الوسائد الوثيرة، وشاهد المناظر باهتمام بالغ. في الحقيقة كان مهتمًا بكل ما رآه، إذ أثارت اهتمامه العربة بجيادها الرشيقة وسرجها اللامعة، والحوذي الطويل والخادم وبزاتهما اللامعتين، كما أثار اهتمامه على وجه الخصوص التويج المرسوم على زجاج النوافذ، وتعرف على الخادم بغرض أن يعرف معنى التويج.

حين وصلت العربة إلى البوابات الكبيرة للحديقة، نظر من النافذة ليرى جيدًا الأسود الحجرية الضخمة التي تزين المدخل. فتحت البوابات امرأة متوردة لها هيئة أمومية، خرجت من بيت جميل يغطيه اللبلاب. وخرج طفلان من باب البيت ووقفا ينظران

بعيون مدورة متسعة إلى الصبي الصغير في العربة، الذي بادلها النظر. وقفت أمها تنحني تحية وتبتسم، وانحنى الطفلان، عند إشارتها لهما، انحناءات تحية متمايلة.

«أتعرفني؟»، سأل الفتى النبيل، «أظنها تحسب أنها تعرفني»، وخلع قبعته المخملية السوداء تحية لها وابتسم.

«كيف حالك؟»، قالت مبتهجة، «مساء الخير!».

خال أن المرأة مسرورة، فقد اتسعت الابتسامة على وجهها المتورد واحتلت عينيها نظرة ودودة.

«باركك الرب أيها اللورد!»، قالت، «بارك الرب وجهك الجميل! أتمنى لك الحظ الطيب والسعادة! مرحبًا بك!».

لوح الفتى النبيل بقبعته وأومأ لها ثانية حين مرت العربة قربها.

«أحب هذه المرأة. يبدو أنها تحب الصبيان. أود القدوم هنا واللعب مع الطفلين. أتساءل إن كان عندها ما يكفي لتأسيس فريق».

لم يخبره السيد هاڤشم أنه لن يسمح له باللعب مع أبناء حارس البوابة. فقد رأى المحامي أنه ما زال عنده متسع من الوقت لإخباره بهذه المعلومات.

درجت العربة ودرجت بين الأشجار الكبيرة الجميلة التي نمت على جانبي الجادة ومدت أغصانها العريضة المتمايلة في قوس عبرها. لم ير سدريك قط أشجارًا كهذه، فقد كانت كبيرة وجليلة، وأغصانها منخفضة على جذوعها الهائلة. لم يعلم عندئذ أن قلعة

دورنكورت إحدى أجمل القلاع في إنجلترا، وأن حديقتها من أكبر الحدائق وأجملها، وأشجارها وجادتها ليس لها مثيل. لكنه عرف أنها جميلة للغاية، وأحب الأشجار الكبيرة ذات الأغصان العريضة، ونور الأصيل يرسل رماحًا ذهبية خلالها. وأحب الهدوء المطلق الذي استولى على كل شيء، فقد شعر بسرور غريب بالجمال الذي لمح منه لمحات خاطفة، وبين الأغصان المتمايلة، والمساحات الكبيرة الجميلة للحديقة التي انتصبت فيها أشجار أخرى بفخامة فرادى أحيانًا، وزرافات أحيانًا أخرى. ومرا بين الفينة والأخرى بأماكن نمت فيها السراخس الطويلة ببقع كبيرة، ومرة بعد مرة كان لون الأرض أزرق من زهور الجريس المتمايلة مع النسيم الطلق. نظر عددًا من المرات ضاحكًا ضحة بهجة حين وثب أرنب من تحت الحشائش واندفع وذيله الأبيض القصير يلمع خلفه. وحلقت طيور الحجل بأزيز مفاجئ وطارت، فصاح وصفق.

«إنه مكان رائع، أليس كذلك؟»، قال للسيد هاڤشم، «لم أر مكانًا جميلًا كهذا قط. إنه أجمل من سنترال پارك».

وقد دهش قليلًا لطول الوقت الذي استغرقه الطريق.

ثم قال أخيرًا «كم تبعد القلعة، من البوابة حتى الباب الأمامي؟».

«ما بين ثلاثة إلى أربعة أميال»، أجاب المحامي.

«هذه مسافة بعيدة تفصل المرء عن بوابته»، عقب اللورد الصغير.

كان يرى شيئًا جديدًا يثير عجبه وإعجابه كل بضع دقائق، وفتن حين رأى الغزلان، بعضها مسترخٍ على العشب وبعضها

واقف وقد أدارت رؤوسها ذوات القرون الجميلة بهيئة مندهشة نحو الجادة حين أزعجتها العربة.

«أأقيم سيرك هنا؟ أم أنها تعيش هنا دومًا؟ لمن هي؟»، قال.

قال له السيد هاڤشم «إنها تعيش هنا، وهي ملك للإيرل جدك».

وشاهدا القلعة بعدئذ، فقد انتصبت أمامهما فخمة وجميلة ورمادية، وآخر أشعة الشمس تلقي أنوارًا لامعة على نوافذها الكثيرة، ولها بريجات وأبراج وشرفات مفرّجة، وقد نما الكثير من اللبلاب على جدرانها، وكل المساحات الواسعة المفتوحة حولها قد أحيطت بمصاطب ومروج وأحواض زهور فاتنة.

«إنه أجمل مكان رأيته في حياتي!»، قال سدريك، وقد احمر وجهه الممتلئ من السعادة، «وهو يذكرني بقصر ملك ما، رأيت صورة له مرة في كتاب حكايات».

رأى باب المدخل الكبير مفتوحًا والكثير من الخدم يقفون في صفين ينظرون إليه. وتساءل عن سبب وقوفهم، وأعجب ببزاتهم كثيرًا. لم يعلم أنهم وقفوا إكبارًا للصبي الصغير الذي ستصبح كل هذه الأبهة ملكًا له يومًا ما، القلعة التي تشبه قصر ملك الحكايات، والحديقة المهيبة، والأشجار الكبيرة الهرمة، والوديان الممتلئة بالسراخس والجريس حيث تلعب الأرانب والخرانق وتسترخي على عشبها الغزلان المبرقشة واسعة العيون. لقد جلس منذ أسابيع قليلة فحسب مع السيد هوبز بين أكوام البطاطا والخوخ المعلب، وساقاه تتدليان من المقعد العالي، وكان محالًا عنده أن يدرك أن كل

هذا البهاء سيكون له. في أول صف الخدم وقفت امرأة مسنة ترتدي فستانًا من الحرير الأسود الفاخر الأملس، لها شعر رمادي وتعتمر قبعة. حين دخل الردهة وقفت أقرب من البقية، وظن الصبي من نظرة عينيها أنها ستتحدث إليه. وقف السيد هاڤشم الذي أمسك بيده للحظة وقال: «هذا هو الفتى النبيل يا سيدة ميلُن، وهذه السيدة ميلن مدبرة المنزل يا سيدي».

مد سدريك يده إليها وقد أشرقت عيناه.

«أأنت من أرسل القطة؟ إنني ممتن لك كثيرًا يا سيدتي»، قال.

بدا وجه السيدة ميلن العجوز الجميل مسرورًا بقدر سرور وجه زوجة حارس البوابة.

«لا بد أن أعرف سيادته في أي مكان، فله وجه النقيب وأسلوبه. إنه ليوم عظيم يا سيدي»، قالت للسيد هاڤشم.

تساءل سدريك عن سبب كونه يومًا عظيمًا، ونظر بفضول إلى السيدة ميلن. وبدا له للحظة كأن في عينيها دموعًا، لكن سرورها واضح فابتسمت له.

«لقد تركت تلك القطة هريرتين هنا»، قالت، «وسترسلان إلى جناح سعادتك».

قال لها السيد هاڤشم بضع كلمات بصوت خفيض.

فأجابت ميلن «في المكتبة يا سيدي، وسيدخل سعادته هناك وحده».

بعد بضع دقائق، قاد الحاجب الطويل نفسه ذو البزة سدريك إلى باب المكتبة، وفتحه وقال «الفتى النبيل يا سيدي»، بنبرة مهيبة جدًا. ورغم أنه ليس إلا حاجبًا، لكنه شعر أنها مناسبة عظيمة بعودة الوريث إلى أرضه وأملاكه، وأخذه إلى الإيرل العجوز الذي سيرث لقبه وأملاكه.

اجتاز سدريك العتبة داخلًا الغرفة، وكانت غرفة كبيرة وفاخرة فيها أثاث فخم منقوش، ورفوف تعلوها رفوف من الكتب. كان الأثاث داكنًا، والستائر ثقيلة وزجاج النوافذ على هيئة معيّنات عميقة، وبدت المسافة طويلة بين طرفي كل منها، فبدا مظهرها معتمًا، لأن الشمس غربت. ظن سدريك للحظة أن لا أحد في الغرفة، وسرعان ما رأى قرب النار المشتعلة في المصطلى الواسع كرسيًا مريحًا، وعلى ذاك الكرسي يجلس أحد، لم يلتفت للنظر إليه في بادئ الأمر.

لكنه جذب انتباهه في ناحية واحدة على الأقل، إذ جلس على الأرض قرب الكرسي ذي المسندين كلب درواس أسحم، له جسد وأطراف كبيرة بحجم الأسد وهذا الحيوان الكبير نهض بفخامة وببطء، ومشى نحو الفتى الصغير بخطوات ثقيلة.

ثم تحدث الشخص الجالس على الكرسي «دوغال، عد يا سيدي»، نادى.

غير أنه لم يعد في قلب الفتى النبيل خوف من شيء أكثر من القسوة، فقد كان فتى صغيرًا شجاعًا طوال حياته، ووضع يده

على طوق الكلب الكبير بأبسط الأساليب، وتقدما معًا، ودوغال يتشممه وهو يمشي.

فرفع الإيرل نظره عندئذ. ما رآه سدريك رجلًا عجوزًا ضخمًا له شعر وحاجبان أهلبان أبيضان، وأنف كمنقار الصقر بين عينيه الصارمتين الغائرتين. وما رآه الإيرل قوام طفل رشيق يرتدي بدلة من القطيفة السوداء له ياقة من الدانتيلا، وخصلات الحب تتماوج حول وجهه الصغير الوسيم المفعم بالرجولة، والذي بادله النظر بنظرة طيبة بريئة. إن كانت القلعة مثل قصر الحكاية، فلا بد أن يقال إن الفتى النبيل كان نسخة من أمير الحكاية رغم أنه لم يدرك هذه الحقيقة، ولعله كان شبيهًا جدًا بأمير الجن. غير أن بريقًا مفاجئًا من النصر والنشوة لمع في قلب الإيرل العجوز المتجهم حين رأى أن حفيده صبي قوي جميل، وأنه نظر بلا تردد عند وقوفه واضعًا يده على عنق الكلب الكبير. وأسعد العجوز النبيل النزق أن الصبي لم يظهر خجلًا أو خوفًا، لا من الكلب ولا منه.

نظر إليه سدريك كما نظر إلى المرأة في الكوخ وإلى مدبرة المنزل، واقترب منه وقال:

«أأنت الإيرل؟ إنني حفيدك الذي أحضره السيد هافشم كما تعلم، أنا النبيل».

ومد يده لأنه ظن أن هذا هو الأمر المهذب واللائق حتى مع الإيرلات، «أرجو أنك بصحة جيدة»، تابع بود مطلق، «تسعدني رؤيتك كثيرًا».

صافحه الإيرل بلمعان غريب في عينيه. وفي البدء كان منشدهًا للغاية فلم يدر ما يقول، وحملق بالهيئة الصغيرة الجميلة من تحت حاجبيه الأهلبين، ونظر إليه من رأسه حتى أخمص قدميه وقال:

«مسرور لرؤيتي، أليس كذلك؟».

«بلى، كثيرًا»، أجاب اللورد.

كان بالقرب منه كرسي فجلس عليه، وكان عالي الظهر، ولم تلمس قدماه الأرض حين استقر عليه، لكنه بدا مرتاحًا جدًا حين جلس، ونظر إلى قريبه المهيب بتركيز وحياء.

ثم عقب «ظللت أتساءل كيف تبدو، وقد استلقيت في مضجعي في السفينة وتساءلت إن كنت تشبه أبي».

«وهل أشبهه؟»، سأل الإيرل.

«حسن، لقد كنت صغيرًا جدًا حين مات، وقد لا أذكر هيئته تمامًا، لكني لا أظنك تشبهه»، أجاب سدريك.

«لقد خاب أملك كما أظن»، قال جده.

«أوه، كلا»، رد الفتى بتهذيب، «يجب المرء طبعًا أن يكون أحد شبيهًا بأبيه، لكنه سيحب هيئة جده بلا شك، وإن لم يشبه أباه. أنت تعرف حب الأقارب».

أسند الإيرل ظهره إلى كرسيه وحدق. لا يمكن القول إنه يعلم شيئًا عن حب الأقارب، فقد أمضى وقت فراغه في الشجار معهم،

وطردهم من بيته، ونعتهم بأقذع الصفات، فكرهوه جميعًا كرهًا شديدًا.

واصل اللورد «أي فتى يحب جده، وبخاصة إن كان عطوفًا عليه كما كنت معي».

لمع بريق غريب آخر في عيني النبيل وقال:

«أوه، كنت عطوفًا معك، أليس كذلك؟».

«بلى»، أجاب الفتى النبيل بمرح، «إنني ممتن لك دومًا من أجل بريجيت وبائعة التفاح وديك».

«بريجيت؟! بائعة التفاح؟! ديك؟!»، تعجب الإيرل.

«أجل!»، أوضح سدريك، «أولئك الذين منحتهم المال، المال الذي قلت للسيد هاقشم أن يعطيه لي إن أردت».

«ها!»، قال سعادته، «هذا هو الأمر، أليس كذلك؟ المال الذي كان عليك إنفاقه كما شئت. ماذا اشتريت به؟ أحب سماع شيء عن هذا».

وعقد حاجبيه الأهلبين ونظر إلى الصبي بحدة، فقد كان في سره فضوليًا لمعرفة كيف دلل هذا الفتى نفسه.

«أوه!»، قال اللورد، «لعلك لم تعلم بأمر ديك وبائعة التفاح وبريجيت. نسيت أنك تعيش بعيدًا عنهم. لقد كانوا أصدقائي المميزين، وقد أصابت مايكل الحمى و...».

«ومن مايكل؟»، سأل الإيرل.

«مايكل هو زوج بريجيت، وقد كانا في مأزق كبير. أنت تعلم كيف يكون الأمر حين يمرض الرجل ولا يتمكن من العمل ويكون عنده اثنا عشر طفلًا. وكان مايكل دومًا رجلًا عاقلًا. واعتادت بريجيت القدوم إلى بيتنا والبكاء. وكانت في المطبخ تبكي في المساء الذي حضر فيه السيد هاڤشم، لأنهم ليس لديهم شيء يأكلونه ولم يتمكنوا من دفع الإيجار. وذهبت لرؤيتها وأرسل السيد هاڤشم في طلبي وقال إنك أعطيته بعض المال من أجلي، فجريت بأقصى سرعتي إلى المطبخ وأعطيته لبريجيت، وهذا حل المأزق. ولم تصدق بريجيت عينيها، ولهذا أنا ممتن لك».

«أوه!»، قال الإيرل بصوت عميق، «هذا أحد الأمور التي فعلتها لنفسك، صحيح؟ وماذا أيضًا؟».

كان دوغال يجلس قرب الكرسي الكبير، وقد اتخذ الكلب الكبير مجلسه هناك حين جلس سدريك، واستدار عددًا من المرات لينظر إلى الصبي كأنه مهتم بالحديث. كان دوغال كلبًا رزينًا يبدو أنه يشعر أنه كبير جدًا لينظر إلى مسؤوليات الحياة باستخفاف. راقب الإيرل العجوز الذي يعرف الكلب جيدًا، باهتمام خفي، لم يكن من عادة دوغال أن يتعرف على أحد بسرعة، وتعجب الإيرل بعض الشيء حين رأى أن الحيوان جلس بهدوء تحت لمسة الطفل. وفي تلك اللحظة، نظر الكلب الكبير إلى الفتى النبيل نظرة أخرى من المعاينة المهيبة، ووضع رأسه الشبيه برأس الأسد عامدًا على ركبة الصبي المغطاة بالقطيفة السوداء.

أجاب سدريك ويده الصغيرة تواصل تمسيد صديقه الجديد: «حسن، لدينا ديك، ستحب ديك، فهو مستقيم جدًا»، قال.

كان هذا تأمركًا لم يكن الإيرل مستعدًا له.

«ما معنى هذا؟»، سأل.

صمت الفتى النبيل لحظة ليفكر، فلم يكن هو نفسه متأكدًا من المعنى، فقد سلم أنها تعني شيئًا مميزًا لأن ديك كان مولعًا باستخدامها.

«أظنها تعني أنه لا يغش أحدًا»، قال، «أو يضرب صبيًا أضعف منه. وهو يمسح أحذية الناس جيدًا ويجعلها تلمع بقدر ما يستطيع. إنه ماسح أحذية محترف».

«هو أحد أصدقائك، أليس كذلك؟» قال الإيرل.

«أنه أحد أصدقائي الكبار»، أجاب الحفيد، «ليس كبيرًا بقدر السيد هوبز لكنه كبير. لقد قدم لي هدية قبل إبحار السفينة».

ووضع يده في جيبه وسحب شئيًا أحمر مطويًا بأناقة وفتحه بفخر واعتزاز. لقد كان المنديل الحريري الأحمر المنقوش عليه رؤوس خيول وحدوات بنفسجية اللون.

قال اللورد الصغير «لقد أعطاني هذا، سأحتفظ به دومًا. يمكنك وضعه حول عنقك أو إبقاؤه في جيبك. لقد اشتراه بأول مال جناه بعد أن اشتريت حصة جيك وقدمت له فُرش جديدة. إنها تذكار. وقد نقشت شعرًا على ساعة السيد هوبز يقول «تذكرني كلما رأيت هذه» وأنا سأتذكر ديك دومًا».

لم يستطع إيرل دورنكورت وصف الإجلال الذي شعر به. فلم يكن نبيلًا عجوزًا يسهل إثارة إعجابه، لأنه رأى كثيرًا من العالم، لكنه وجد هنا شيئًا جديدًا حبس أنفاسه وجعله يشعر بعاطفة وحيدة. لم يهتم يومًا بالأطفال وكان شديد الانشغال بمسرّاته فلم يكن عنده وقت للاهتمام بهم. لم يثر أبناؤه اهتمامه في طفولتهم الباكرة، غير أنه تذكر أحيانًا أن والد سدريك كان صبيًا وسيمًا وقويًا. كان شديد الأنانية ففوت على نفسه بهجة رؤية الإيثار لدى الآخرين، ولم يعرف أن الطفل قد يكون حنونًا وصادقًا ومحبًا ورقيق القلب، وأن دوافعه قد تكون بريئة وعفوية. بل بدا له الصبي حيوانًا صغيرًا بغيضًا، أنانيًا جشعًا صاخبًا حين يخضع لتقييد صارم. فقد سبب ولداه الأكبران لمعلميهما متاعب وإزعاج مستمرة، وتصور أنه سمع شكاوى عن ابنه الأصغر لأنه لم يكن متميزًا. ولم يخطر له قط أنه سيعجب بحفيده، فقد أرسل في طلب سدريك الصغير لأن كبرياءه أرغمته على فعل ذلك. وإن كان الصبي سيحل محله في المستقبل، فلم يرغب أن يتلوث اسمه بالسخافة بوصوله إلى ريفي جاهل. وقد قر في نفسه أن الصبي سيصبح سخيفًا إن نشأ في أمريكا، ولم يحمل في نفسه حبًا للصبي، بل أمنيته الوحيدة أن يجده حلو القسمات حلاوة لائقة، ويتمتع بحظ معقول من العقل. فقد خاب أمله كثيرًا في ابنيه الآخرين، واستشاط غضبًا من زواج النقيب سدريك إرول بأمريكية، فلم يظن يومًا أن شيئًا مميزًا سينتج عنه. حين أعلن الخادم دخول اللورد، خشي من النظر إلى الصبي كيلا يرى كل ما يخافه. ولهذا السبب أمر بإدخال الصبي إليه

وحيدًا. فلم يكن يطيق لكبره أن يرى الآخرون خيبته إن حدث ذلك. فقفز قلبه العنيد المتكبر العجوز عندما تقدم الصبي بهيئته الرشيقة البسيطة، ويده الشجاعة على عنق الكلب الكبير. لم يتمن الإيرل في أقوى أمنياته أن يبدو حفيده بهذه الصورة، فقد بدا وسيمًا جدًا ليكون الصبي الذي خشي رؤيته حقًا، ابن المرأة التي يكرهها، هذا الصبي شديد الجمال الشجاع الأنيق! ارتعدت فرائص الإيرل لهذه المفاجأة المبهرة.

ثم بدأ حديثهما، وتأثر تأثرًا غريبًا، وازدادت حيرته. إذ اعتاد في المقام الأول رؤية الناس يشعرون بالخوف أو الحرج بين يديه، فلم يتوقع إلا أن يخاف حفيده أو يخجل. لكن سدريك لم يعد يخاف الإيرل ولا دوغال، ولم يكن وقحًا، بل كان ودودًا ودًا بريئًا، ولم يدرك أن ثمة ما يثير خوفه أو حرجه. لم يغفل الإيرل أن الصبي الصغير عده صديقًا وعامله معاملة صديق، دون أن يرتاب به البتة. وكان جليًا أن الصبي حين جلس على كرسيه العالي وتحدث بأسلوبه الطفولي لم يحسب قط أن يكون هذا الرجل العجوز الضخم الصارم إلا عطوفًا عليه، ومسرورًا لرؤيته هناك. كما كان جليًا أنه راغب، بأسلوبه الطفولي، بإسعاد جده وتسليته. ومع أن الإيرل نزق قاسي القلب مهتم بالمظاهر، لكنه شعر ببهجة خفية وجديدة بهذه الثقة. فلم يكن من الكريه لقاء أحد يثق به ولا يجفل منه، أو لا يبدو أنه اكتشف الجانب القبيح من طبعه، أحد ينظر إليه بعينين صافيتين واثقتين، وإن كان صبيًا يرتدي بزة سوداء من القطيفة.

اعتدل العجوز في كرسيه، وأشار إلى رفيقه الصغير كيما يخبره

المزيد عن نفسه، وراقب ببريق غريب في عينيه الصبي يتحدث. كان اللورد مستعدًا للرد على كل أسئلته وتحدث بأسلوبه الدمث برباطة جأش. فأخبره عن ديك وجيك، وبائعة التفاح والسيد هوبز، ووصف مسيرة الجمهوريين وبهاء لافتاتها ولوحاتها الشفافة والمشاعل والألعاب النارية. وفي أثناء الحديث وصل إلى الرابع من يوليو والثورة، وقد أصبح متحمسًا عندما تذكر أمرًا وتوقف على حين غرة.

فسأله جده: «ما الأمر؟ لماذا لا تكمل؟».

تململ اللورد في كرسيه بشيء من القلق، وتبين للإيرل أنه محرج من الفكرة التي خطرت له.

«لقد ظننت فحسب أن ذلك لا يعجبك»، أجاب، «لعل أحدًا من أقاربك كان فيها. لقد نسيت أنك إنجليزي».

قال اللورد «يمكنك المواصلة، لا أحد من أقربائي كان فيها، وقد نسيت أنك إنحليزي أيضًا».

«أوه! كلا»، قال سدريك بسرعة، «أنا أمريكي!».

«إنك إنجليزي»، قال الإيرل عابسًا، «كان أبوك إنجليزيًا».

لقد أسعده قول ذلك قليلًا، لكنه لم يسعد سدريك. لم يخطر ببال الفتى قط تطور كهذا. وأخذ يشعر بالحر حتى جذور شعره.

قال معترضًا «لقد ولدت في أمريكا. على المرء أن يكون أمريكيًا إن ولد في أمريكا. أستميحك عذرًا لمعارضتي إياك»، بتهذيب

وحرج جادين، «لكن السيد هوبز أخبرني إن نشبت حرب أخرى، كما تعلم، فسيتعين علي أن أكون أمريكيًا».

ضحك الإيرل ضحكة قصيرة، كانت قصيرة ومتجهمة، لكنه ضحك.

«ستفعل أليس كذلك؟»، قال.

لقد كره أمريكا والأمريكيين، لكنه استمتع برؤية جدية هذا الوطني الصغير وحماسه. وقال في نفسه إن أمريكيًا صالحًا كهذا سيؤول إلى إنجليزي صالح حين يغدو رجلًا.

لم يتسن لهما الوقت للعودة لنقاش الثورة ثانية، وفي الحقيقة شعر اللورد الصغير بشيء من الحرج بالعودة إلى الموضوع، قبل إعلان جهوزية العشاء.

ترك سدريك كرسيه واتجه إلى قريبه النبيل، ونظر إلى قدمه المتألمة بالنقرس.

«أتود أن أساعدك؟»، قال بتهذيب، «يمكنك الاتكاء علي كما تعلم. جرح السيد هوبز قدمه مرة عندما تدحرج عليها برميل البطاطا، واعتاد الاستناد علي».

كاد الحاجب الكبير أن يعرض سمعته ومنصبه للخطر بابتسامته. لقد كان حاجبًا أرستقراطيًا عاش دومًا في أفضل البيوت النبيلة، ولم يبتسم قط. في الحقيقة لو أنه سمح لنفسه بالانصياع لأي ظرف بشيء أرعن من قبيل الابتسام، لشعر أنه خادم سوقي

ومذموم. لكنه لم يجد مناصًا، غير أنه استطاع إنقاذ نفسه بتحديقه إلى رأس الإيرل في لوحة قبيحة جدًا.

نظر الإيرل إلى قريبه الصغير الجسور من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

«أتظن أن بوسعك فعلها؟»، سأل بفظاظة.

قال سدريك «أظنني أستطيع. أنا قوي فأنا في السابعة كما تعلم. يمكنك الاتكاء على عصاك من جانب وعلي من الجانب الآخر. يقول ديك إن عندي عضلات جيدة بالنسبة إلى صبي في السابعة فحسب».

وضم يده ورفعها إلى كتفه، حتى يرى الإيرل العضلات التي امتدحها ديك، وكان وجهه جادًا ووقورًا فظن الحاجب أن عليه النظر مليًا إلى اللوحة القبيحة.

قال الإيرل «حسن، يمكنك المحاولة».

أعطاه سدريك العصا وأخذ يساعده على النهوض. يفعل الحاجب هذا عادة، فيشتم بقسوة حين يشتد تألم الإيرل من النقرس. لم يكن الإيرل رجلًا مهذبًا جدًا في العادة، وكثيرًا ما ارتجفت منه أوصال الخدم الضخام في بزاتهم الفاخرة.

لكنه لم يشتم هذا المساء، رغم أنه شعر بالوخز في قدمه أكثر من مرة، واختار أن يجرب تجربة، فنهض ببطء ووضع يده على الكتف الصغيرة المقدمة إليه بكثير من الشجاعة. خطا اللورد الصغير خطوة حذرة للأمام ناظرًا إلى القدم المصابة بالنقرس.

«اتكئ علي فحسب»، قال بجذل مشجعًا، «سأمشي ببطء شديد».

لو ساعد الحاجبُ الإيرل، لاتكأ الإيرل على عصاه أقل مما يتكئ على ذراع مساعده. غير أن جزءًا من تجربته كان بجعل حفيده يشعر بثقله. لقد كان وزنًا كبيرًا حقًا، وبعد بضع خطوات غدا وجه اللورد الصغير ساخنًا، وقلبه ينبض أسرع، لكنه تمالك نفسه بقوة، متذكرًا العضلات وثناء ديك عليها.

«لا تخش من الاتكاء علي»، قال لاهثًا، «إنني بخير لولا أنه طريق طويل».

لم تكن غرفة الطعام بعيدة جدًا حقًا، لكن الطريق بدا طويلًا في عين سدريك، قبل أن يصلا الكرسي على رأس المائدة. وازدادت اليد على كتفه ثقلًا عند كل خطوة، وازداد وجهه سخونة واحمرارًا، وأنفاسه قصرًا، لكنه لم يفكر بالاستسلام، بل قوّى عضلاته الصغيرة، ورفع رأسه منتصبًا وشجع الإيرل وهو يعرج.

«أتؤلمك قدمك كثيرًا حين تقف عليها؟»، سأل، «هل وضعتها يومًا في ماء ساخن وخردل؟ اعتاد السيد هوبز وضع قدمه في الماء الساخن، وقيل لي إن عشبة زهرة العطاس لطيفة».

مشى الكلب الضخم ببطء بجانبهما، وتبعهما الخادم الكبير، وقد تعجب وهو يرى اللورد الصغير يبذل كل ما في وسعه، ويحتمل العبء بحنوٍّ هكذا.

بدا الإيرل متعجبًا أيضًا حين رمق الوجه الصغير المحمر بنظرة جانبية. حين دخلا الغرفة التي سيتناولان فيها العشاء، رأى سدريك

أنها غرفة واسعة وفاخرة وأن الخادم وقف خلف الكرسي على رأس المائدة وحملق بقوة حين دخلا إليها.

لكنهما وصلا إلى الكرسي أخيرًا، وأزيحت اليد عن الكتف، وجلس الإيرل معتدلًا.

أخرج سدريك منديل ديك ومسح جبينه.

«إنها ليلة دافئة، أليست كذلك؟»، قال، «لعلك تحتاج النار بسبب... بسبب قدمك، لكنها تبدو دافئة لي».

كان اهتمامه الرقيق بمشاعر قريبه كبيرًا إذ لم يرغب أن يشعره أن شيئًا مما يحيط به لا لزوم له.

«لقد قمت بعمل مضن قليلًا»، قال الإيرل.

«أوه، كلا»، قال اللورد الصغير «لم يكن شاقًا، لكني شعرت بالحرارة، يشعر المرء بالحر صيفًا».

ودعك بهمة خصلاته الرطبة بالمنديل الجميل. وضع كرسيه على الجانب الآخر من المائدة مقابل جده. كان كرسيًا بمسندين، يناسب أشخاصًا يفوقونه ضخامة. في الحقيقة لقد رأى كل شيء كبيرًا حتى اللحظة، من الغرف الكبيرة بأسقفها العالية، والأثاث الضخم، والحاجب الكبير، والكلب الضخم والإيرل نفسه، كان لكل ذلك أحجام عُدت لتشعر اللورد الصغير أنه صغير جدًا، حقًا. لكن هذا لم يزعجه، إذ لم ينظر لنفسه يومًا على أنه كبير أو مهم وكان مستعدًا للتكيف مع ظروف غلبته.

لم يبد يومًا فتى صغيرًا كما بدا عند جلوسه على هذا الكرسي الكبير على طرف المائدة. اختار الإيرل -في عالم وحدته العجيب- أن يعيش بشيء من الفخامة. كان معجبًا بعشائه وتناوله بتحفظ. نظر إليه سدريك عبر بريق الكؤوس والأطباق الفاخرة، التي بدت مدهشة لعينه التي لم تعتد هذه المناظر. ولو نظر غريب إلى ذلك لابتسم للوحة المؤلفة من الغرفة الكبيرة الفاخرة والخدم الضخام مرتدي البزات والأضواء المتلألئة والفضيات والزجاج البراق، والرجل العجوز النبيل الصارم الهيئة على رأس المائدة والصبي الصغير على طرفها الآخر. كان العشاء أمرًا جادًا دومًا لدى الإيرل، وأمرًا خطيرًا لدى الطاهي، إن لم يكن سيادته مسرورًا أو لم تكن قابليته مفتوحة. بدت قابليته اليوم أفضل بقليل من المعتاد، ربما لأن عنده ما يفكر به إلى جانب نكهة الأطباق أو كثافة المرق. لقد منحه حفيده شيئًا يفكر به، وظل ينظر إليه عبر المائدة. لم يتحدث كثيرًا لكنه جعل الصبي يتحدث. لم يتخيل قط أنه سيستمتع بحديث طفل، لكن اللورد الصغير أمتعه وحيره معًا، وظل يتذكر كيف جعل كتف الطفل تشعر بثقله ليجرب دوام شجاعة الصبي واحتماله فحسب، وسر لمعرفة أن حفيده لم يجبن ولا فكر للحظة بالتخلي عما تعهد بالقيام به.

«ألا تضع تاجك طوال الوقت؟»، عقب اللورد الصغير باحترام.

«كلا»، أجاب الإيرل بابتسامته المقتضبة، «لا يروق لي».

«قال السيد هوبز إنك تضعه دومًا، قال سدريك، «ولكن بعد أن فكر بالأمر مليًا قال إنه يظنك تخلعه أحيانًا لتعتمر قبعتك».

«أجل»، قال الإيرل، «أخلعه أحيانًا». واستدار أحد الخدم جانبًا فجأة وسعل سعلة واحدة قصيرة من خلف يده.

أنهى سدريك عشاءه واعتدل في كرسيه ونقل نظره في الغرفة.

«لا بد أنك فخور ببيتك»، قال، «إنه بيت جميل، لم أر قط شيئًا بهذا الجمال، ولكن لي من العمر سبعة أعوام فحسب، ولم أر الكثير».

«أوَ تظن أن علي أن أفخر به؟»، قال الإيرل.

«أظن أن أي أحد سيفخر به»، أجاب اللورد، «لو كان بيتي لشعرت بالفخر به. كل ما يحيط به جميل والحديقة وتلك الأشجار، يا لجمالها، ويا لحفيف الأوراق!».

ثم صمت للحظة ونظر عبر الطاولة بشيء من الحزن.

«إنه بيت كبير يسكنه اثنان فحسب، صحيح؟»، قال.

«إنه كبير تمامًا ليعيش فيه اثنان»، أجاب الإيرل، «هل تراه كبيرًا جدًا؟».

تردد اللورد للحظة ثم قال: «أحسب أنه إن عاش فيه اثنان ليسا على وفاق، فسيشعران بالوحدة أحيانًا».

«أتظنني سأكون رفيقًا جيدًا؟»، سأل الإيرل.

«أجل»، أجاب سدريك، «أظن ذلك. كنت أنا والسيد هوبز صديقين، كان أفضل من عرفت من أصدقاء عدا الغالية».

قطب الإيرل حاجبيه الكثين تقطيبة سريعة.

«ومن الغالية؟».

«إنها أمي»، قال اللورد الصغير بصوت خفيض.

ربما ناله التعب قليلًا لاقتراب موعد نومه، وربما كان طبيعيًا تعبه بعد حماس الأيام القليلة الماضية، وربما منحه الشعور بالتعب إحساسًا غامضًا بالوحدة لدى تذكره أنه لن ينام في بيته الليلة، تراقبه العينان المحبتان لتلك الصديقة المقربة. لقد كان هذا الصبي وأمه صديقين مقربين دومًا، ولم يستطع الكف عن التفكير بها، وكلما فكر فيها عزف أكثر عن الحديث. وحين انتهى وقت العشاء رأى الإيرل ظلًا خافتًا على وجهه، لكن سدريك تمالك نفسه بشجاعة فائقة. وحين عادا إلى المكتبة، حطت يد الإيرل -التي لم تكن ثقيلة كالمرة السابقة- على كتف حفيده، رغم أن الحاجب الطويل مشى إلى جانب سيده.

وتركهما الخادم وحدهما، فجلس سدريك على بساط المصطلى قرب دوغال، ومسد أذني الكلب لدقائق صامتًا وهو ينظر إلى النار.

راقبه الإيرل، وبدت عينا الصبي حزينتين وساهمتين، وتنهد مرة أو اثنتين. جلس الإيرل هادئًا وأبقى عينيه مثبتتين على حفيده.

قال في نهاية المطاف: «بم تفكر أيها اللورد؟».

رفع اللورد نظره بجهد رجولي ليبتسم.

«أفكر بالغالية»، قال، «وأظن أن من الأفضل لي أن أنهض وأذرع الغرفة جيئة وذهابًا».

فنهض ووضع يديه في جيبيه الصغيرين، وأخذ يروح ويغدو. لمعت عيناه لمعانًا شديدًا وزمت شفتاه، لكنه أبقى رأسه مرفوعًا ومشى بحزم. تململ دوغال بكسل ونظر إليه ثم وقف ومشى نحو الطفل وأخذ يتبعه بقلق. أخرج اللورد يدًا من جيبه ووضعها على رأس الكلب.

قال: «إنه كلب لطيف، وهو صديقي فهو يعرف شعوري».

«وبم تشعر؟»، سأله الإيرل.

ساءه أن يرى النزاع الذي ينهش الصبي بأول إحساسه بالحنين، ولكن أسعده أن يرى محاولته جاهدًا وبشجاعة احتماله جيدًا، فأحب هذه الشجاعة الطفولية.

«تعال هنا»، قال.

ذهب إليه اللورد.

«لم يسبق لي أن ابتعدت عن بيتي قبلًا»، قال الصبي، بنظرة قلقة في عينيه البنيتين «يشعر المرء شعورًا غريبًا حين يقضي ليلة بطولها في قلعة امرئ آخر عوضًا عن قضائها في بيته. لكن الغالية ليست ببعيدة عني، وقالت لي أن أتذكر أ... و... وأني في السابعة، وأن بوسعي النظر إلى الصورة التي أعطتها لي».

وضع يده في جيبه وأخرج علبة صغيرة تغطيها القطيفة البنفسجية.

قال: «هذه هي، عليك ضغط الرفاس الصغير فتنفتح وتراها هناك!».

اقترب من كرسي الإيرل وقرب العلبة الصغيرة واستند على مسنده وعلى ذراع الرجل العجوز بارتياح كما يفعل الأطفال دومًا.

«ها هي»، قال حين انفتحت العلبة ونظر مبتسمًا.

عقد الإيرل حاجبيه فلم يرغب برؤية الصورة لكنه نظر إليها رغما عنه، ونظر إليه منها وجه شاب جميل، وجه يشبه الصبي الواقف جانبه كثيرًا، فأدهشه تمامًا.

«أحسبك تظن أنك تحبها جدًا»، قال.

«أجل»، قال اللورد بنبرة رقيقة وبصراحة بريئة، «أظن ذلك، وأظنه حقيقة. لقد كان السيد هوبز وديك وبريجيت وماري ومايكل أصدقائي أيضًا كما تعلم، لكن الغالية... حسن، إنها صديقتي المقربة، ونقول لبعضنا بعضًا كل شيء دائمًا، تركها أبي لي لتعتني بي، وحين أغدو رجلًا سأعمل وأجني النقود من أجلها».

«ماذا تفكر أن تعمل؟»، سأله جده.

نزل اللورد الصغير إلى بساط المصطلى وجلس هناك والصورة لم تزل في يده، وبدا يفكر جديًا قبل أن يجيب:

«أظنني قد أعمل في التجارة مع السيد هوبز»، قال، «لكني أحب أن أكون رئيسًا».

«سنرسلك إلى مجلس اللوردات بدلًا من ذلك»، قال جده.

«حسن»، عقب اللورد، «إن لم أستطع أن أكون رئيسًا وإن كانت هذه تجارة مربحة فلست أمانع، إن عمل البقالة ممل أحيانًا».

ربما وزن الأمور في ذهنه لأنه جلس هادئًا بعد هذا ونظر إلى النار لبعض الوقت.

لم يتحدث الإيرل ثانية، وأسند ظهره إلى كرسيه وراقبه، ومرت أفكار كثيرة غريبة في خاطر الرجل العجوز النبيل. تمطط دوغال وغط في النوم ورأسه على كفه الضخم، وساد صمت طويل.

وبعد نصف ساعة أدخل السيد هافشم. كانت الغرفة الكبيرة هادئة حين دخل، والإيرل يجلس هادئًا متكئًا على كرسيه. وتململ حين دنا منه السيد هافشم، ورفع يده محذرًا، وبدا أنه لم ينو أن يومي، وكأنها كانت تلقائية. كان دوغال نائمًا وقرب الكلب الضخم استلقى اللورد الصغير نائمًا أيضًا وشعره الأجعد على ذراعه.

الفصل السادس



لم يستيقظ اللورد الصغير حين حمل إلى فراشه الليلة الماضية. وعند استيقاظه صباحًا، كان أول صوت أدركه صوت فرقعة الحطب في النار وأصوات مهمهة.

«عليك أن تحرصي على ألا تقولي شيئًا عن ذلك يا داوسن»، سمع أحدًا يقول «فهو لا يعلم لم ليست معه، وسبب فصلها عنه».

قال صوت آخر «ما دامت تلك أوامر سيادته فلا بد أن تنفذ. ولكن إن أذنت لي يا سيدتي، وهذا الأمر بيننا، سواء أكنت خادمًا أم لا، علي قول ذلك. إن هذه قسوة، أعني فصل تلك الأرملة المسكينة الجميلة الشابة عمن هو من لحمها ودمها، وهو ليس إلا صبي جميل صغير نبيل المنشأ. قال جيمس وتوماس البارحة في ردهة الخدم إنهما لم يريا أحدًا في حياتهما، ولا من أصحاب البزات، له أساليب ذلك الصغير، في براءته وتهذيبه واهتمامه كأنما جلس لتناول العشاء مع أعز أصدقائه، وله طبع ملائكي، أمام من يجمد الدم في العروق أحيانًا (أستميحك عذرًا يا سيدتي) كما هو معلوم جيدًا. وحين نظرنا

يا سيدتي، حين قرعت الجرس لنا أنا وجيمس للذهاب إلى المكتبة وإحضاره للأعلى، ورفعه جيمس بين ذراعيه، كان وجهه البريء أحمر ومتورد، ورأسه الصغير على كتف جيمس وشعره يتدلى أجعد لامعًا، في منظر بديع لم يخطر لك رؤيته قط. وفي رأيي أن سيدي لم يغفل عن ذلك أيضًا، لأنه نظر إليه وقال لجيمي «احرص ألا توقظه!»».

تحرك سدريك على وسادته وانقلب فاتحًا عينيه.

كان في الغرفة امرأتان، وكل شيء مشرق ومبهج من قماش الشيت المزهر. وفي المصطلى نار والشمس تنساب خلال النوافذ التي تواشج عليها اللبلاب. تقدمت نحوه كلتا المرأتين، ورأى أن إحداهما هي السيدة ميلن، مدبرة المنزل، والأخرى امرأة مريحة متوسطة العمر، لها وجه حنون وحسن الطباع.

قالت السيدة ميلن «أسعدت صباحًا يا سيدي، أنمت جيدًا؟».

فرك سعادته عينيه وابتسم وقال

«أسعدت صباحًا، لم أعلم أنني هنا».

«لقد حملت للأعلى أثناء نومك»، قالت مدبرة المنزل، «هذه غرفتك وهذه داوسن التي ستعتني بك».

اعتدل اللورد في فراشه ومد يده إلى داوسن كما مدها إلى الإيرل.

قال: «كيف حالك يا سيدتي؟ إنني ممتن لقدومك للاعتناء بي».

«يمكنك أن تناديها داوسن يا سيدي»، قالت مدبرة المنزل مبتسمة، «لقد نوديت بهذا الاسم دومًا».

«الآنسة داوسن، أم السيدة داوسن؟»، سأل اللورد.

«داوسن فحسب يا سيدي»، أجابت داوسن مبتهجة، «لست آنسة ولا سيدة، بورك قلبك الصغير! هلا نهضت الآن وسمحت لداوسن أن تلبسك ثيابك، ثم تتناول طعامك في غرفة اللعب».

«لقد تعلمت ارتداء ثيابي بنفسي منذ سنوات، شكرًا لك»، قال اللورد، «علمتني الغالية، الغالية هي أمي. ليس عندنا الا ماري لتؤدي أعمال المنزل، كالغسيل وما إلى ذلك، ولذا فليس من الممكن أن نكبدها مزيدًا من العناء. يمكنني أن أستحم بنفسي أيضًا إن تفضلت بتفحص الثنيات بعد انتهائي».

تبادلت دواسن ومدبرة المنزل النظر.

«ستفعل داوسن كل ما تطلبه منها»، قالت السيدة ميلن.

«سأفعل طبعًا، باركه الرب»، قالت داوسن بصوتها المريح المرح، «سيرتدي ثيابه بنفسه إن شاء، وسأقف قربه متأهبة لمساعدته إن احتاجني».

«شكرًا لك»، أجاب الفتى، «إن ربط الأزرار صعب أحيانًا، كما تعلمين، فأضطر لطلب المساعدة عندئذ».

ظن داوسن امرأة حنونة جدًا، وقبل انتهاء الاستحمام وارتداء الثياب صارا صديقين مقربين، وقد عرف عنها الكثير. فقد تبين أن زوجها كان جنديًا وقتل في معركة حقيقية. وأن ابنها بحار، وكان مسافرًا في رحلة بحرية طويلة، وأنه رأى قراصنة ومدافع وصينيين

وأتراكًا، وأنه جلب إلى البيت بعض الأصداف الغريبة وقطعًا من المرجان عرضت داوسن أن تريها له في أي وقت، إذ احتفظت ببعضها في حقيبة متاعها. كل هذا كان مثيرًا، كما عرف أنها اعتنت أيضًا بأطفال صغار طوال حياتها، وأنها جاءت من بيت كبير في جزء آخر من إنجلترا، إذ اعتنت بفتاة صغيرة جميلة اسمها الليدي غوينث ڤوغان.

«وهي قريبة لسعادتك»، قالت داوسن، «وقد تلتقيها يومًا ما».

قال اللورد: «أتظنين ذلك؟ أود ذلك، فلم أعرف يومًا فتيات صغار، لكني أحب النظر إليهن دومًا».

وحين دخل إلى الغرفة المجاورة لتناول إفطاره، رآها غرفة رائعة، ووجد غرفة أخرى تحاذيها أخبرته داوسن أنها له أيضًا، فاستولى عليه شعور بالضآلة ثانية بقوة. فأسر بذلك لداوسن، عندما جلس إلى المائدة التي رتبت عليها أطباق الإفطار الجميلة.

«إنني صبي صغير جدًا»، قال بقليل من الحزن، «كي أسكن في قلعة كبيرة كهذه، ويكون لي غرف كبيرة كثيرة، ألا ترين ذلك؟».

قالت داوسن «أوه! هيا! إنك تشعر بالغرابة قليلًا في البداية فحسب، هذا كل ما في الأمر، لكنك ستتغلب على هذا سريعًا، ثم ستحب المكان هنا. إنه مكان جميل كما تعلم».

«إنه مكان جميل جدًا بالطبع»، قال اللورد بتنهيدة قصيرة، «لكني سأحبه أكثر لو لم أشتق للغالية هكذا. اعتدت تناول إفطاري

معها صباحًا، وأن أضع السكر والكريمة في شايها، وأناولها شرائح الخبز. هذا يجعل الإفطار أنيسًا».

قالت داوسن ملاطفة «أوه، جيد! تعلم أن بوسعك رؤيتها كل يوم. ولا تتخيل مقدار ما ستخبره بها. بوركت! انتظر حتى تسير في الأنحاء وترى بعض الأشياء، من الكلاب والإسطبلات وبداخلها الخيول. ثمة واحد منها أثق تمامًا أنه سيعجبك».

«حقًا؟»، قال اللورد، «أنا مولع بالخيول، فقد أحببت جيم، وهو حصان عربة بقالة السيد هوبز، كان حصانًا جميلًا، ما لم يكن حرونًا».

«حسن!» قالت داوسن، «انتظر حتى ترى ما في الإسطبلات. كما أنك لم تر الغرفة المجاورة بعد، يا إلهي!».

«وماذا فيها؟»، سأل اللورد.

«انتظر حتى تنهي إفطارك فترى»، قالت داوسن.

وعندئذ أخذ ينهشه الفضول، فانصرف لإفطاره بجد. فقد بدا له أن ثمة شيئًا يستحق رؤيته في الغرفة المجاورة، وكان لداوسن هيئة غامضة مزهوة.

«هيا إذن»، وانزلق من كرسيه بعد دقائق قليلة، «لقد اكتفيت، هل يمكنني الذهاب والنظر إليها؟».

هزت داوسن رأسها موافقة وتقدمته، وهي تبدو أكثر غموضًا وغرورًا من ذي قبل، وقد ازداد اهتمامه.

حين فتحت باب الغرفة، وقف على العتبة ونظر حوله مندهشًا، ولم يتحدث بل اكتفى بوضع يديه في جيوبه ووقف هناك محمرًا حتى جبينه ناظرًا إليها.

احمر وجهه لأنه فوجئ كثيرًا، وتحمس للحظة. إذ كانت رؤية مكان كهذا كافية لإدهاش أي صبي عادي.

كانت الغرفة كبيرة أيضًا مثلما كانت كل الغرف، وبدت له أجمل من البقية جمالًا مختلفًا. فلم يكن الأثاث ضخمًا وقديمًا كما كان في الغرف التي رآها في الأسفل، وكانت الستائر والبسط والجدران أكثر إشراقًا، وفيها رفوف مكتظة بالكتب، وعلى الطاولة عدد من الألعاب، ألعاب جميلة وبديعة، مثل التي نظر إليها إعجابًا وبهجة في واجهات المتاجر في نيويورك.

«إنها تبدو غرفة صبي»، قال في نهاية المطاف، حابسًا أنفاسه قليلًا، «لمن هذه؟».

«اذهب وانظر إليها»، قالت داوسن، «إنها لك!».

«لي؟»، صاح، «لي؟ لم هي لي؟ من أعطاها لي؟»، فوثب للأمام صارخًا صرخة جذل قصيرة. لقد بدا ذلك كثيرًا عليه ليصدقه. «إنه جدي!» قال، بعينين لامعتين كالنجوم، «أعلم أنه جدي!».

«أجل، إنه سعادته»، قالت داوسن، «وإن كنت رجلًا صغيرًا لطيفًا ولم تشغل بالك ببعض الأمور، واستمتعت وسعدت طوال اليوم، فسيمنحك كل ما تطلبه».

كان صباحًا مثيرًا للغاية. إذ كان لديه الكثير من الأشياء ليراها، والكثير من التجارب، وقد أسرته كل الأشياء الجديدة فلم يستطع نقل عينيها عنها ليرى التالية. وانتابه الفضول فعرف أن كل هذا حُضر من أجله وحده، قبل أن يغادر نيويورك، وجاء أشخاص من لندن لترتيب الغرف التي سيشغلها، وجلبوا الكتب والألعاب ستثير اهتمامه.

«هل عرفت أحدًا يومًا عنده جد لطيف للغاية؟!»، قال لداوسن.

ولون الشك وجه داوسن للحظة، إذ لم يكن رأيها حسنًا بسعادة الإيرل. لم تكن في البيت منذ زمن طويل، لكنها قضت من الوقت ما يكفي لتسمع سمات النبيل تُناقش بحرية في ردهة الخدم.

«ومن بين كل الرجال الأشرار والنزقين والقساة، كان حظي السيء أن ألبس بزة وأخدمه هو»، قال أطول الخدم، «إنه أقسى وأسوأ من عرفت».

وهذا الخادم تحديدًا، واسمه توماس، كرر أيضًا لرفاقه في الأسفل بعض تعليقات الإيرل للسيد هافشم، حين ناقشا هذه التحضيرات.

«امنحه ما شاء، واملأ غرفته لعبًا»، قال الإيرل، «امنحه ما يسليه، فينسى أمه بسرعة كافية، أسعده واملأ عقله بأمور أخرى، ولن نلقى المتاعب معه، فهذه طبيعة الصبيان».

أما وقد وضع الإيرل الهدف الحنون نصب عينيه، فلعله لم

يسعد كثيرًا أن يجد أن هذه ليست طبيعة هذا الصبي تحديدًا. فقضى الإيرل ليلة سيئة وأمضى الصباح في غرفته، لكنه أرسل في طلب حفيده بعدما تناول غداءه ظهرًا.

لبى اللورد الدعوة في الحال، ونزل السلالم العريضة بخطوات وثابة، وسمعه الإيرل يجري عبر الردهة، ثم فتح الباب ودخل محمر الخدين لامع العينين.

«انتظرت أن ترسل في طلبي»، قال، «وقد استعددت منذ وقت طويل. إنني ممتن كثيرًا لكل هذه الأشياء! إنني ممتن لك للأبد! لقد لعبت بها طوال هذا الصباح».

«أوه!»، قال الإيرل، «لقد أحببتها، أليس كذلك؟».

«لقد أحببتها كثيرًا، حسن لا أستطيع وصف مقدار حبي لها!»، قال اللورد ووجهه متقد من البهجة، «ثمة شيء مثل كرة القاعدة، غير أنك تلعبها على لوح فيه أوتاد بيض وسود، وتحفظ أهدافك بعدّاد له أسلاك. حاولت تعليم داوسن، لكنها لم تفهم تمامًا في البداية، فهي لم تلعب كرة القاعدة قط كما تعلم، لأنها سيدة، وأخشى أنني لم أحسن الشرح لها، لكنك تعرفها تمام المعرفة، أليس كذلك؟».

«أخشى أنني لا أعرفها»، أجاب الإيرل، «إنها لعبة أمريكية، أليس كذلك؟ أتشبه الكريكيت؟».

«لم أر كريكيت يومًا»، قال اللورد، «لكن السيد هوبز أخذني عددًا من المرات لمباريات كرة القاعدة. إنها لعبة رائعة، تثير حماسك!

هل تود أن أذهب لجلب لعبتي وأريها لك؟ لعلها تسليك وتنسيك ألم قدمك، أتؤلمك قدمك كثيرًا هذا الصباح؟».

«أكثر مما أطيق»، كان جوابه.

«ربما لن تنساه إذن»، قال اللورد الصغير قلقًا، «قد يزعجك الحديث عن اللعبة. أتظنه يسليك، أم يزعجك؟».

«اذهب وأحضرها،» قال الإيرل.

كانت هذه تسلية جديدة حقًا، أن يرافق طفل يعرض تعليمه لعب الألعاب، لكن جدة الأمر أمتعته. كانت على فم الإيرل ابتسامة خفية حين عاد سدريك حاملًا الصندوق الذي يضم اللعبة بين يديه، وعلى وجهه اهتمام ولهفة.

«أتسمح لي أن أُدني تلك الطاولة الصغيرة من كرسيك؟»، سأل.

قال الإيرل: «اقرع الجرس ليأتي توماس ويحملها عنك».

«أوه يمكنني فعل ذلك بنفسي»، أجاب اللورد، «فهي ليست ثقيلة جدًا».

«حسن جدًا»، رد الجد، واتسعت الابتسامة الخفية على وجه الرجل العجوز وهو يراقب استعدادات الصبي، وكان فيها اهتمام مستغرق. سحبت الطاولة الصغيرة إلى الأمام ووضعت قرب كرسيه، وأخرجت اللعبة من العلبة ورتبت عليها.

«إنها ممتعة جدًا حين تبدأ»، قال اللورد، «يمكنك أخذ الأوتاد السود فريقًا لك والبيض فريقي، إنهم رجال كما ترى. والدورة

حول الملعب تسمى هدفًا ويحتسب نقطة واحدة، وهذه هي نقاط الخروج، وهذه القاعدة الأولى وهذه الثانية وهذه الثالثة وهذه القاعدة الأساسية»[1].

وأسهب في الشرح بحماس كبير، وأظهر مواقف الرامي والملتقط والضارب في المباراة الحقيقية، ووصف وصفًا حماسيًا لرمية ساخنة رائعة رآها تلتقط في الفرصة العظيمة التي شهد فيها مباراة برفقة السيد هوبز. كان مبهجًا رؤية جسده الصغير النشط الرشيق وإيماءاته المتحمسة وسروره البسيط بهذا كله.

وحين فرغ من الشروحات والتوضيحات وبدأ اللعبة بجد، وجد الإيرل نفسه مستمتعًا، فقد كان رفيقه الصغير منشغلًا، ولعب بكل حماس الطفل. ومنحت ضحكاته الجذلة حين يرمي رمية جيدة، وفرحته عند تسجيل الأهداف، وفرحته المنصفة لحظه الحسن وحظ خصمه، للمباراة طعمًا.

لو قال أحدهم لإيرل دورنكورت، قبل أسبوع، إنه في هذا الصباح بعينه سينسى ألم النقرس ومزاجه الشكس بلعبة طفل، تلعب بأوتاد بيض وسود على لوح مصبوغ صبغًا جميلًا، مع صبي صغير أجعد الشعر، لغضب جدًا بلا شك. لكنه نسي نفسه حتمًا حين فتح الباب وأعلن توماس وصول زائر.

---

(١) يحتسب الهدف إذا طارت الكرة خارج الحاجز فيجري اللاعب إلى كل القواعد الأربعة ويحرز نقطة. أما نقاط الخروج فهي إن لم يستطع العداء الوصول إلى القاعدة قبل الكرة.

الزائر المقصود، الذي كان رجلًا محترمًا يرتدي الأسود، لم يكن إلا قس الأبرشية، الذي دهش لرؤية المشهد العجيب فتراجع خطوة، وكاد أن يتعثر بتوماس.

الأمر في الحقيقة أن الموقر موردونت لم ير شيئًا من واجبه بغيضًا حقًا أكثر من الجزء الذي يجبره على زيارة الراعي النبيل في القلعة. ذ جعل الراعي النبيل هذه الزيارات بغيضة دومًا، وبوسعه أن يفعل ذلك. فقد مقت الكنائس والمؤسسات الخيرية، واستشاط غضبًا كلما صدف أن يكون أحد مستأجريه فقيرًا ومريضًا وبحاجة للعون. وإن اشتد عليه ألم النقرس، لم يتردد في القول إنه لا يريد أن يثير أحد ضجره وغضبه بإخباره قصصًا عن أقدارهم التعسة. أما إن كان الألم أقل فيتسم بالإشفاق، فيمنح القس بعض المال بعد أن يعنفه بأقسى الأساليب، ويعنّف الأبرشية بأسرها لأنانيتها. غير أنه لم يغفل مرة عن التعليقات الساخرة والمحرجة قدر استطاعته، في أي مزاج كان، وأن يجعل المبجل موردونت يتمنى لو أن رمي الإيرل بشيء ثقيل كان لائقًا ومسيحيًا. طوال هذه السنوات التي كان فيها موردونت قسًا لأبرشية دورنكورت لم يتذكر الكاهن يومًا رؤية السيد يفعل، بمطلق إرادته، شيئًا لطيفًا لأي أحد أو يبدي اهتمامه بأحد، في أي ظرف يظهر، سوى بنفسه.

لقد جاء اليوم للحديث إليه عن مسألة ملحة كثيرًا، ولما قطع الجادة خشي زيارته أكثر من المعتاد لسببين، أولهما أنه عرف أنه عانى من آلام النقرس لأيام عدة، وكان مزاجه بغيضًا جدًا ووصلت الأقاويل عنه إلى القرية، حملتها إحدى الخادمات الشابات إلى أختها التي

تدير متجرًا صغيرًا وتبيع إبر الحياكة والقطن والنعناع والإشاعات، وسيلة لكسب العيش الشريف. ما لا تعرفه السيدة دِبل عن القلعة وسكانها، وعن بيوت المزرعة وسكانها، والقرية وأهلها، لا يستحق الذكر. فقد علمت كل شيء عن القلعة طبعًا، لأن أختها جين شورتز كانت إحدى خادمات الطابق العلوي، وكانت لطيفة وأنيسة للغاية مع توماس.

«وأفعال سيادته، وحديث سيادته، قال السيد توماس بنفسه لجين، إنه ما من رجل يرتدي بزة يمكنه احتمالها، فقد ألقى بصحن الخبز على توماس، قبل يومين، ولولا أن الأمور الأخرى كانت حسنة والصحبة في الأسفل شديدة اللطف، لما ظل هناك ساعة».

وسمع القس كل هذا، لأن الإيرل كان الملام الأثير في الأكواخ وبيوت المزارع، ومنح سلوكه السيء كثيرًا من النساء الطيبات شيئًا يتحدثن عنه باهتمام بالغ.

ومن لم يعرف بغضب النبيل العجوز لزواج ابنه الوسيم النقيب من السيدة الأمريكية؟ ومن لم يعرف بمعاملته القاسية للنقيب، وموت الشاب الوسيم الضخم ذي الابتسامة العذبة، الذي كان الفرد الوحيد من العائلة المرموقة الذي أحبه الجميع، في بلاد غريبة، مغضوبًا عليه وفقيرًا؟ ومن لم يعرف بكراهيته الكبيرة للسيدة المسكينة زوجة ابنه، وكرهه التفكير بطفلها وعزوفه عن رؤيته حتى مات ولداه ولم يبق له وريث؟ ثم من لم يعلم أنه تطلع دونما حب أو سعادة لقدوم ابنه، وأنه اقتنع بأنه سيجد الصبي

أمريكيًا سوقيًا أخرق مضحكًا، وسيجلب الخزي لاسمه النبيل أكثر من تشريفه؟

ظن العجوز المتكبر الغاضب أنه أبقى أفكاره سرًا ولم يحسب أحدًا يجرؤ على تخمين شعوره وخوفه ناهيك عن مناقشته أو الحديث عنه. لكن خدمه راقبوه وقرؤوا وجهه ومزاجه النزق ونوبات تجهمه وناقشوها في ردهة الخدم. وإن حسب أنه بأمان بعيدًا عن جمع الرعاع، فقد كان توماس يخبر جين والطاهية والساقي وخادمات البيت والخدم الآخرين أنه يرى «العجوز أسوأ من المعتاد وهو يفكر بابن النقيب ويظن أنه لن يكون شرفًا للعائلة. وهذا ما يستحقه، فهذا خطؤه، فما الذي يتوقع من طفل نشأ في ظروف تعسة هناك في أمريكا الوضيعة؟».

وحين مشى الموقر موردونت تحت الأشجار الكبيرة تذكر ذلك الصبي الغامض الذي وصل القلعة المساء الماضي، وأن ثمة تسعة احتمالات من عشرة أن تكون مخاوف الإيرل قد تحققت، وواحدًا وعشرين احتمالًا مقابل واحد أن الإيرل سيكون غاضبًا غضبًا مستطيرًا إن خيب الصبي الصغير رجاءه، ومتأهبًا لصب جام غضبه على أول امرئ يزوره، ومن المحتمل أن يكون هذا المرء هو الموقر.

وعندما فتح توماس باب المكتبة، التقطت أذناه رنين ضحكة طفل سعيد، فذهل.

«هذان رميتان خارجًا»، صاح صوت صغير صاف متحمس، «لقد رأيتها خارجًا!».

ثم رأى كرسي الإيرل ومسند القدم وقدمه عليه، وقربه طاولة صغيرة ولعبة عليها وقريبًا منه، بل يستند على ذراعه وركبته التي لا تؤلمه صبي صغير له وجهه مشرق وعينان ترقصان حماسًا، «إنهما رميتان في الخارج»، صاح الغريب الصغير، «لم يكن الحظ حليفك، أليس كذلك؟»، ولاحظ كلاهما دخول أحد ما.

نظر الإيرل حوله، وقد عقد حاجبيه الكثين كعادته. وحين رأى القادم، لم يزل السيد موردونت مندهشًا أكثر لرؤيته يبدو أقل بغضًا من المعتاد، بدلًا من أن يكون أكثر. بل إنه بدا كأنما نسي للحظة أنه بغيض، وأن بوسعه أن يكون كريمًا إن أراد.

«آه!»، قال بصوته الأجش، لكنه مد يده بشيء من اللباقة، «لقد وجدت شغلًا جديدًا كما ترى».

ووضع يده الأخرى على كتف سدريك، وربما كان في أعماق قلبه حماس من الزهو والرضا لأنه وريث يحب تقديمه للآخرين. كان في عينيه شرارة شيء يشبه البهجة حين دفع الصبي للأمام قليلًا.

قال «هذا اللورد الجديد، وهذا هو السيد موردونت كاهن الأبرشية أيها اللورد».

نظر اللورد إلى الرجل ذي الثياب الإكليركية ومد إليه يده.

«تسعدني معرفتك كثيرًا»، قال متذكرًا الكلمات التي سمع السيد هوبز يقولها في مناسبة أو اثنتين حين يحيي زبونًا جديدًا باحترام.

تأكد سدريك أن على المرء أن يكون مهذبًا أكثر من عادته عند حديثه مع القس.

أمسك السيد موردونت اليد الصغيرة بيده للحظة حين نظر إلى وجه الطفل الصغير باسمًا بعفوية. وقد أحب الصبي منذ تلك اللحظة، وقد أحبه الناس دومًا طبعًا. ولم يكن ما أسره جمال الصبي أو جاذبيته، بل لطفه البسيط الطبيعي، ما جعل أي كلمة يقولها، وإن كانت غريبة ومفاجئة، تبدو مبهجة وسارة. حين نظر القس إلى سدريك نسي التفكير بأمر الإيرل تمامًا. فما من شيء في العالم أقوى من قلب طيب، وصفّى هذا القلب الصغير الطيب بصورة ما، رغم أنه ليس إلا قلب طفل، جو الغرفة الكبيرة الموحشة وجعلها أكثر إبهاجًا.

«يسرني أن أتعرف إليك أيها اللورد»، قال الكاهن، «لقد سافرت رحلة طويلة لتأتي إلينا، كثير من الناس سيسرون بمعرفة وصولك سالمًا».

«لقد كانت رحلة طويلة»، أجاب اللورد، «لكن الغالية أمي كانت معي ولم أكن وحدي، ولا يشعر المرء بالوحدة البتة إن كانت أمه معه، والسفينة جميلة».

«اجلس يا موردونت»، قال الإيرل، فجلس السيد موردونت، ونقّل نظره بين اللورد والإيرل.

«لا بد لي أن أهنئ سيادتك كثيرًا»، قال بحرارة.

من الجلي أن الإيرل لا ينوي الإفصاح عن مشاعره حول هذا.

«إنه شبيه بأبيه»، قال بشيء من الفظاظة، «لنأمل أنه سيحسن التصرف أكثر منه». ثم أضاف، «حسن ما الأمر هذا الصباح يا موردونت؟ من الواقع في مأزق الآن؟».

لقد كان هذا سيئًا بقدر ما توقع السيد موردونت، لكنه تردد لحظة قبل أن يقول:

«إنه هغنز، هغنز من مزرعة إدج، لقد كان تعس الحظ كثيرًا. فقد مرض الخريف الماضي، وأصيب أبناؤه بالحمى القرمزية. لا أستطيع القول إنه يحسن تدبير أموره، لكن حظه سيء وهو متأخر في سداد دينه. ومشكلته الآن هو إيجاره. إذ أخبره نويك أن عليه مغادرة المكان إن لم يدفع. وسيكون ذاك مأزقًا عويصًا للغاية، لأن زوجته مريضة. وجاء إلي البارحة وتوسل إلي أن أتولى الأمر وأطلب مهلة، ويظن أنك لو منحته مهلة لتمكن من الدفع ثانية».

«كلهم يظنون ذلك»، قال الإيرل وقد اسود وجهه.

تقدم اللورد الذي وقف بين جده والزائر، يستمع بإنصات شديد. لقد اهتم بهغنز في الحال وتساءل عن عدد أبنائه، وإن كانت الحمى القرمزية قد آذتهم كثيرًا. كانت عيناه واسعتين مثبتتين على السيد موردونت باهتمام بالغ حين مضى الرجل في حديثه.

«إن هغنز رجل حسن النية»، قال القس محاولًا تعزيز التماسه.

«إنه مستأجر سيء»، أجاب الإيرل، «ويتأخر في السداد دومًا كما أخبرني نويك».

«إنه في مأزق عظيم الآن»، قال الكاهن.

«إنه يحب زوجته وأولاده كثيرًا وإن أخذت منه المزرعة فسيتضورون جوعًا بمعنى الكلمة. لا يمكنه منحهم الأطعمة المغذية التي يحتاجونها، وساءت حال اثنين من الأطفال بعد الحمى، وأمر الطبيب بسقيهم النبيذ وأطايب أخرى لا يمكن لهغنز شراءها».

عندئذ تقدم اللورد الصغير خطوة أخرى.

«هكذا كانت حال مايكل»، قال.

دهش الإيرل قليلًا.

«لقد نسيت أمرك!» قال، «نسيت أنك معنا في الغرفة. حسن، ومن مايكل؟»، وعاد بريق الفرحة الغريبة إلى عيني الإيرل الغائرتين.

«إنه زوج بريجيت، وأصيب بالحمى»، أجاب اللورد، «ولم يستطع دفع الإيجار ولا شراء النبيذ وغيره، وأنت منحته ذاك المال لتساعده».

عقد الإيرل حاجبيه معًا بتقطيبة غريبة، لم تكن تشبه العبوس، ونظر إلى السيد موردونت.

«لست أدري أي مالك عقار سيصبح»، قال، «لقد أخبرت هاڤشم أن يحصل الصبي على كل ما يطلب، وكل ما يريد، وتبين أن ما أراده هو المال لإعطائه للمتسولين».

«أوه! لكنهم ليسوا بمتسولين»، قال اللورد متحمسًا، «كان مايكل عامل بناء رائع! إنهم جميعًا يعملون».

«أوه!»، قال الإيرل، «ليسوا متسولين، بل عاملي بناء رائعين، وماسحي أحذية وبائعات تفاح».

نظر إلى الصبي صامتًا للحظة، وقد خطرت له فكرة جديدة، ولم تكن فكرة سيئة رغم أنها لم تنبع من عاطفة نبيلة. «تعال هنا»، قال أخيرًا.

ذهب اللورد ووقف قربه قدر الإمكان دون مساس بالقدم المتألمة.

«ما الذي ستفعله في هذه الحال؟»، سأل سيادته.

لا بد من القول إن موردونت أحس إحساسًا غريبًا عندئذ. فلما كان رجلًا ذا عقل حصيف أمضى سنين طويلة في عزبة دورنكورت، ويعرف سكانها غنيهم وفقيرهم، وأهل القرية النزيه الكادح منهم والمخادع الكسول، أدرك جيدًا القوة، صالحة كانت أم طالحة، التي ستمنح مستقبلًا لهذا الصبي الصغير الواقف هناك، وعيناه البنيتان متسعتان، ويداه في جيوبه. وتبادر إلى ذهنه أيضًا أن قوة عظيمة ستمنح له الآن، ربما عبر نزوة من الرجل المتكبر المنشغل بذاته، وأن ذاك سيكون أسوأ ما سيحدث لا للآخرين فحسب، بل له أيضًا، ما لم يكن طبع الصبي بريئًا وعطوفًا.

«وماذا ستفعل في حالة كهذه؟»، سأل الإيرل.

اقترب اللورد قليلًا ووضع يدًا على ركبته بهيئة واثقة بطيب رفيقه.

قال: «لو كنت غنيًا جدًا، ولم أكن صبيًا صغيرًا لأبقيته وأعطيته أشياء من أجل أبنائه، لكني لست إلا صبي»، ثم بعد صمت لحظة أشرق فيه وجهه إشراقًا واضحًا «يمكنك فعل أي شيء أليس كذلك؟ »، قال.

«أف!»، قال سيادته محملقًا به، «أهذا رأيك؟»، ولم يكن غاضبًا أيضًا.

«أعني أن بوسعك فعل أي شيء لأي أحد»، قال اللورد، «ومن نويك؟».

«إنه وكيلي»، قال الإيرل، «وبعض مستأجريّ لا يحبونه كثيرًا».

«أستكتب له رسالة الآن؟»، سأل اللورد، «هل أحضر لك القلم والحبر؟ يمكنني إبعاد اللعبة عن الطاولة».

لم يخطر له للحظة أن نويك مسموح له بفعل أسوأ ما في وسعه.

صمت الإيرل للحظة ولم يزل ينظر إليه، ثم قال «أيمكنك الكتابة؟».

«أجل»، أجاب سدريك، «ولكن ليس جيدًا».

«ارفع الأشياء عن الطاولة»، أمر الإيرل، «واجلب القلم والحبر وورقة من مكتبي».

أخذ اهتمام السيد موردونت يزداد. وفعل اللورد ما قيل له بلباقة شديدة، وفي غضون بضع دقائق كانت الورقة والمحبرة الكبيرة والقلم جاهزة.

«حسن!»، قال مرحًا، «يمكنك كتابتها الآن».

«بل أنت من سيكتبها»، قال الإيرل.

«أنا؟!»، قال اللورد متعجبًا واحمر جبينه، «هل ستفي بالغرض إن كتبتها أنا؟ لا أهجئ الكلمات تهجئة صحيحة دومًا ما لم يكن معي القاموس أو أحد يصحح لي».

«ستفي بالغرض»، قال الإيرل، «ولن يتذمر هغنز من الأخطاء الكتابية».

«وأنا لست المحسن، بل أنت. اغمس القلم بالحبر».

أخذ اللورد القلم وغمسه فيها المحبرة، ثم عدل جلسته وانكب على الطاولة.

«والآن، ماذا يجب أن أقول؟»، سأل.

«يمكنك القول «لا يتعرضن أحد لهغنز في الوقت الراهن» ووقعها باللورد»، قال الإيرل.

غمس اللورد قلمه في الحبر ثانية، وأمال ذراعه وأخذ يكتب، كانت عملية بطيئة وجادة، لكنه انكب عليها تمامًا، وبعد وهلة صار المخطوط جاهزًا، وناوله لجده بابتسامة ممزوجة بالقلق.

«هل تظنها تفي بالغرض؟».

نظر الإيرل إليها، وارتعشت زوايا فمه قليلًا: «أجل»، أجاب، «سيراها هغنز مرضية تمامًا»، وناولها للسيد موردونت.

قرأ موردونت المكتوب:

«عزيزي السيد نويك

إن سمحت لا تعترد سبيل السيد هغنز في الوقت الراهن والتزم.

المخلص لك باحترام

اللورد»

«يوقع السيد هوبز رسائله هكذا دومًا،» قال اللورد، «ورأيت أن من الأفضل كتابة «إن سمحت»، هل تهجئة تعترد[1] صحيحة؟».

«إنها ليست صحيحة تمامًا كما في القاموس»، أجاب الإيرل.

«خشيت ذلك»، قال اللورد، «كان علي أن أسأل، هذه هي الحال مع الكلمات التي تتألف من حروف كثيرة. على المرء النظر في القاموس فهذا آمن دومًا، سأكتبها ثانية».

وكتبها ثانية، كاتبًا نسخة أنيقة، منتبهًا إلى مسألة التهجئة باستشارة الإيرل نفسه.

«إن التهجئة أمر غريب»، قال، «إنها غالبًا تختلف عما تتوقعها. لقد ظننت دومًا أن «إن سمحت» تكتب سامحت، لكنها ليست كذلك كما تعلم، وتظن أن عزيزي، تكتب عززِي إن لم تسأل. هذا أمر محبط أحيانًا».

عندما غادر السيد موردونت أخذ الرسالة معه وأخذ معه شيئًا

(١) تعترض.

آخر أيضًا، أي إحساس أجمل ومفعم بالأمل أكثر مما حمل معه في عودته من تلك الجادة في الزيارات السابقة لقلعة دورنكورت.

حين غادر الكاهن، عاد اللورد الذي رافقه إلى الباب إلى جده.

«أيمكنني الذهاب إلى الغالية الآن؟»، قال، «أحسبها تنتظرني».

صمت الإيرل للحظة.

«ثمة شيء لك في الإسطبل عليك رؤيته أولًا»، قال، «اقرع الجرس».

قال اللورد: «إنني ممتن جدًا، ولكن إن سمحت لي فإني أفضل رؤيته غدًا، فهي تنتظرني طوال الوقت».

«حسن جدًا»، قال الإيرل، «سنطلب العربة»، ثم أضاف بجفاء، «إنه مهر».

شهق اللورد شهيقًا طويلًا.

«مهر؟!»، قال فرحًا، «لمن هو؟».

«لك»، أجاب الإيرل.

«لي؟»، صاح الصبي، «لي، مثل الأشياء في الأعلى؟».

«أجل»، قال جده، «أتود أن تراه؟ هل آمر بإحضاره؟».

احمرت وجنتا اللورد أكثر فأكثر.

«لم أحسب أنني سأحصل على مهر»، قال، «لم أحسب قط. يا لسعادة الغالية حين تعرف، لقد منحتني كل شيء أليس كذلك؟».

«أتود رؤيته؟»، سأل الإيرل.

شهق اللورد شهيقًا طويلًا «أريد رؤيته، وأريد رؤيته بقوة ولا أطيق صبرًا، لكني أخشى أني ليس عندي وقت».

«أعليك الذهاب ورؤية أمك بعد ظهر اليوم؟»، سأل الإيرل، «أتظن أن بوسعك تأجيل ذهابك؟».

«يا إلهي، إنها تفكر بي طوال الصباح، وأنا أفكر بها».

«أوه!»، قال الإيرل، «حقًا؟ اقرع الجرس».

وحين قادا العربة في الجادة تحت قوس الأشجار، كان صامتًا. لكن اللورد لم يكن كذلك، بل تحدث عن المهر فسأل عن لونه وحجمه واسمه وماذا يحب أن يأكل، وعمره، ومتى يمكنه النهوض صباحًا والذهاب لرؤيته باكرًا».

«ستسر الغالية كثيرًا»، ظل يقول، «ستكون ممتنة لك لكرمك معي. إنها تعلم انني أحب المهور لكن لم نحسب قط أن نحصل على مهر. كان في الجادة الخامسة صبي لديه مهر يركبه كل صباح واعتدنا المرور بمنزله لرويته».

اتكأ على الوسائد وتفحص الإيرل باهتمام حاد وصمت مطبق للحظات.

«أظنك أفضل الرجال في العالم»، قال متحمسًا، «إنك تفعل الخير دومًا، أليس كذلك؟ وتفكر بالآخرين. تقول الغالية إن هذا أفضل أنواع العطف؛ ألّا تفكر بنفسك بل بالاخرين، وأنت تفعل

هذا، صحيح؟». بُهت الإيرل لأنه وجد نفسه مرسومًا بألوان مبهجة، فلم يدر ما يقول، وشعر أنه بحاجة لوقت للتفكير. فرؤية كل واحد من دوافعه القبيحة الأنانية تتغير إلى دوافع حسنة وكريمة ببساطة الطفل تجربة فريدة.

تابع اللورد ولم يزل ينظر إليه بعينين مكبرتين؛ تلكما العينين الرائعتين الصافيتين البريئتين.

«إنك تسعد الكثير من الناس»، قال، «فلديك مايكل وبريجيت وأبناؤهما العشرة، وبائعة التفاح وديك والسيد هوبز والسيد هغنز والسيدة هغنز وأبناؤهما، والسيد موردونت لأنه كان مسرورًا طبعًا، والغالية وأنا، بالمُهر وكل شيء. أتعلم أنني أحصيتهم على أصابعي وفي ذهني ووجدت أنهم سبعة وعشرون شخصًا كنت كريمًا معهم، وهذا كثير... سبعة وعشرون!».

«وأنا من أحسن إليهم، أليس كذلك؟»، قال الإيرل.

«عجبًا، أجل، كما تعلم»، قال اللورد، «لقد أسعدتهم جميعًا»، وقال بشيء من التردد اللطيف، «أتعلم أن بعض الناس يخطئون في حق الإيرلات حين يظنون أنهم يعرفونهم. كان السيد هوبز مخطئًا، وسأكتب له وأخبره عن ذلك».

«وما رأي السيد هوبز بالإيرلات؟»، سأل سيادته.

«كما ترى، كانت المشكلة»، أجاب مرافقه الصغير، «أنه لم يعرف أيًا منهم، بل قرأ عنهم فحسب في الكتب. وظن، ولا تغضب لقوله،

أنهم مستبدون عنيفون؛ وقال إنه لن يسمح لهم بالمرور بمتجره. لكنه لو عرفك لاختلف شعوره حتمًا، سأخبره عنك».

«وبم ستخبره؟».

قال اللورد متقدًا من الحماس: «سأخبره أنك ألطف رجل سمعت به يومًا، وأنك تفكر بالآخرين دومًا وتسعدهم، و... وأرجو أن أصبح مثلك تمامًا حين أكبر».

«مثلي تمامًا!»، ردد سيادته ناظرًا إلى الوجه الصغير المتحمس، وتسلل لون أحمر شاحب تحت جلده الذاوي، وأشاح بعينيه فجأة ونظر خارج نافذة العربة إلى أخشاب الزان الكبيرة، والشمس تلمع على أوراقها اللامعة البنية المحمرة.

«مثلك تمامًا»، قال اللورد مضيفًا بتواضع، «إن استطعت. ربما لست جيدًا بما يكفي لذلك، لكني سأحاول».

درجت العربة في الجادة الراقية تحت الأشجار الجميلة عريضة الأغصان، خلال المساحات المظللة بالأخضر ودروب نور الشمس الذهبي. رأى اللورد ثانية الأماكن الجميلة التي تعلو فيها السراخس وتتمايل فيها أزهار الجريس مع النسيم. ورأى الغزلان واقفة أو مستلقية على العشب الطويل، تدير عيونها الكبيرة المندهشة عند مرور العربة. ولمح لمحات خاطفة الأرانب البنية وهي تنطلق بعيدًا. وسمع طنين الحجل ونداءات الطيور وأغانيها، وبدا ذلك كله أجمل عنده من ذي قبل. كان قلبه ممتلئًا بالسرور والسعادة بالجمال في كل مكان، لكن الإيرل رأى وسمع أشياء مختلفة، رغم أنه كان

ينظر للخارج أيضًا. فقد رأى حياة طويلة لم يتخللها أفعال حسنة ولا أفكار رحيمة. ورأى سنوات كان فيها رجلًا قويًا شابًا غنيًا ذا سطوة، استغل شبابه وقوته وثراءه وسطوته لإسعاد نفسه فحسب وقتل الوقت بتوالي السنين والأيام. ورأى هذا الرجل، عندما قتل الوقت وجاء الهرم، وحيدًا دون أصدقاء حقيقيين وسط كل هذه الثروة الباهرة، بل رأى أناسًا يبغضونه أو يخشونه، وأناسًا يتملقونه ويتذللون إليه، غير أن أحدًا منهم لم يهتم حقًا إن عاش أو مات ما لم يكن ثمة شيء يكسبونه أو يخسرونه من ذلك. نظر إلى الأكرات الواسعة التي يملكها وعرف ما لم يعرفه اللورد، من مساحاتها الممتدة، والثروة التي تمثلها وعدد الأشخاص والبيوت على ترابها. وعرف أيضًا أمرًا آخر لم يعرفه اللورد، أن في كل البيوت وضيعها أو حسنها، أناسًا يحسدونه على الثروة واللقب الفاخر والسلطة، ويرغبون بالحصول عليها ويتبادر إلى أذهانهم وصف المالك النبيل بالطيب مثلًا، أو يتمنون أن يكونوا مثله، مثلما قال الصبي ذو الروح البريئة.

ولم يكن التفكير في ذلك مبهجًا حتى عند رجل عجوز مادي متهكم. كان مكتفيًا بذاته سبعين عامًا ولم يتكرم ويأبه يومًا برأي العالم به، ما دام لا يتعارض مع راحته أو متعته. والحقيقة أنه لم يتنازل يومًا للتفكير بذلك كله، وفعل ذلك الآن، لأن طفلًا صدق أنه أفضل مما كان، وألمح له- عندما تمنى أن يحذو خطاه اللامعة ويقتدي به- بسؤال غريب إن كان هو الشخص المناسب ليكون مثالًا يحتذى.

ظن اللورد أن قدم الإيرل تؤلمه، فانعقد حاجباه وهو ينظر إلى الحديقة. ولما ظن ذلك حاول الصبي المتفهم ألا يزعجه واستمتع برؤية الأشجار والسراخس والغزلان في صمت.

لكن العربة أخيرًا توقفت بعد أن عبرت البوابة ومرت عبر الدروب الخضراء لمسافة قصيرة، فقد وصلا بيت الصيد، وقفز اللورد إلى الأرض قبل أن يتسنى للخادم الضخم التقدم لفتح باب العربة.

استيقظ الإيرل من أحلام اليقظة مندهشًا.

«عجبًا! هل وصلنا؟»، قال.

قال اللورد «أجل. دعني أعطك عصاك، واتكأ عليّ حين تنزل».

«لن أخرج»، أجاب الإيرل بفظاظة.

«ألن... ألن ترى الغالية؟»، قال اللورد بوجه تعلوه الدهشة.

«ستعذرني الغالية»، قال الإيرل بجفاف، «اذهب إليها وأخبرها أن لا شيء يبعدك عنها، ولا حتى المهر الجديد».

قال اللورد «سيخيب رجاؤها، إذ تود رؤيتك كثيرًا».

كان جوابه «أخشى أنها لن تفعل. ستأتي العربة بعد أن نعود، قل لجيفرز أن ينطلق يا توماس».

أغلق توماس باب العربة، وبعد نظرة حيرة تجاوز اللورد المدخل. حظي الإيرل بفرصة، كما حظي السيد هاڤشم مرة، لرؤية

ساقين رشيقتين جميلتين قويتين تنطلقان على الأرض بسرعة مدهشة. من الواضح أن صاحبهما لم ينو تضييع الوقت. درجت العربة ببطء لكن الإيرل لم يسند ظهره فورًا، بل لم يزل ينظر خارجًا ومن خلال فرجة بين الأشجار استطاع رؤية باب البيت المفتوح، وانطلق الصغير يرتقي العتبات ورأى امرأة شابة ورشيقة ترتدي ثوبًا أسود تجري للقائه. كأنهما طارا معًا حين قفز اللورد إلى ذراعي أمه متعلقًا برقبتها ومغطيًا وجهها الحلو بالقبلات.

الفصل السابع



صباح الأحد التالي كان لدى السيد موردونت عدد كبير من المصلين، وفي الحقيقة لا يذكر أي يوم أحد ازدحمت فيه الكنيسة هكذا. والناس الذين حضروا كانوا ممن نادرًا ما شرفوه بالحضور لسماع موعظته. بل كان في الكنيسة أناس من هزلتن، الأبرشية المجاورة، وحضر مزارعون موفورو العافية لوحتهم الشمس، وزوجات بدينات هنيات خدودهن كالتفاح معتمرات أجمل قبعاتهن ومتشحات بأجمل الأوشحة. وستة أطفال أو نحوهم لكل عائلة. كانت زوجة الطبيب حاضرة مع بناتها الأربع، والسيد والسيدة كمسي اللذان يديران الصيدلية، ويصنعان أقراص الدواء والمساحيق للجميع على مبعدة عشرة أميال، جلسا على مقعدهما، والسيدة دبل في مقعدها. وجلست الآنسة ستف خياطة القرية، وصديقتها الآنسة بيركنز صانعة القبعات في مقعدهما، وكان مساعد الطبيب الشاب حاضرًا، والمتدرب لدى الصيدلاني. في الحقيقة لقد حضرت كل أسرة في المقاطعة، بصورة أو بأخرى.

في أثناء الأسبوع الماضي، قيلت قصص كثيرة رائعة عن اللورد الصغير، وانشغلت السيدة دبل بالانصراف للزبائن الذين يدخلون لشراء إبر بقيمة پنس أو الأشرطة البخسة لسماع ما تقصه. ولم ينقطع رنين جرس المتجر المعلق على الباب من ذهاب الناس وإيابهم. عرفت السيدة دبل تمامًا كيف فرشت غرف السيد الصغير لأجله، والألعاب الثمينة التي ابتيعت له، والمهر الجميل البني الذي ينتظره، والشاب الصغير الذي يعتني به، وعربة الصيد ذات اللجام المغطى بالفضة. كما استطاعت أن تحكي أيضًا ما قاله كل الخدم حين نظروا إلى الطفل في ليلة وصوله، وأن كل امرأة من الخدم قالت إنه من العار حقًا أن يبعد الطفل المسكين الجميل عن أمه، وقلن جميعًا إنهن غصصن حين ذهب وحده إلى المكتبة لرؤية جده، لأنه ما من أحد عرف كيف سيلقاه، وكان مزاج الإيرل كافيًا لإرباكهم وهم كبار فما بالك به وهو الطفل؟

قالت السيدة دبل «ولكن صدقيني يا سيدة جنيفر يا سيدتي، لا يعرف ذاك الطفل الخوف، لذا قال السيد توماس إنه دخل وابتسم وتحدث إلى سيادته كأنهما صديقان منذ ساعته الأولى. وبهت الإيرل، يقول توماس، فلم يستطع فعل شيء إلا الاستماع والتحديق من تحت حاجبيه. ويرى السيد توماس، يا سيدة بيتس يا سيدتي، أن الإيرل البغيض قد سر في داخله، وشعر بالفخر أيضًا، لأنه لم يتمن رؤية ولد أوسم ولا أخلاق أرقى رغم أنها عتيقة الطراز، كما قال السيد توماس».

ثم جاءت قصة هغنز، التي حكاها الموقر موردونت على مائدة

عشائه، والخدم الذين سمعوها سردوها في المطبخ ومن هناك انتشرت مثل النار في الهشيم.

وفي يوم السوق، حين ظهر هغنز في البلدة، انهالت عليه الأسئلة من كل جانب، وسئل نويك أيضًا، وقد عرض الرسالة الموقعة باسم «اللورد» لاثنين أو ثلاثة أشخاص ردًا على ذلك السؤال.

فوجدت زوجات المزارعين الكثير مما يتحدثن عنه عند شرب الشاي والتبضع، وقد أولين الموضوع حقه وناقشنه كثيرًا. وفي يوم الأحد، مشين إلى الكنيسة أو جئن بالعربات مع أزواجهن، الذين شعروا بشيء من الفضول حول اللورد الجديد الذي سيصبح مالكًا للأرض بمرور الوقت.

لم يكن من عادة الإيرل الحضور إلى الكنيسة يومًا، لكنه اختار الظهور في الأحد الأول. ورغب في الجلوس على مقعد العائلة الكبير واللورد إلى جانبه.

كان في باحة الكنيسة الكثير من الطوافين، والكثير من المتسكعين في الزقاق ذلك الصباح. وكان عند البوابات وعند السقيفة جماعات، ودارت الكثير من النقاشات حول مجيء الإيرل حقًا، وفي ذروة هذا النقاش، قالت امرأة صالحة متعجبة:

«إه، لا بد أن هذه هي الأم، يا لها من جميلة شابة». واستدار كل من سمعها ونظر إلى المرأة الرشيقة القادمة على الدرب. كان الخمار مرفوعًا عن وجهها واستطاعوا رؤية جمالها وعذوبتها، والشعر اللامع ملتفًا مثل شعر الطفل تحت قبعة الأرملة.

لم تفكر بالناس حولها، بل بسدريك وبزياراته لها وفرحه بمهره الجديد، الذي امتطاه قادمًا إلى بابها البارحة جالسًا باعتدال والسعادة والزهو باديان عليه. غير أنها لم تغفل عن نظر الناس إليها، وأن وصولها أثار شيئًا من الحماس. فلحظته أولًا لأن امرأة ترتدي شملة حمراء انحنت لها انحناءة متمايلة، وفعلت أخرى فعلها وقالت «بوركت يا سيدتي!» وخلع رجل تلو الآخر قبعاتهم حين مرت بهم. لم تفهم الأمر للحظة، ثم أدركت أن ذلك لأنها أم اللورد، واحمرت خجلًا وابتسمت وانحنت أيضًا وقالت «شكرًا لك» بصوت رقيق للمرأة العجوز التي باركتها. كان هذا الاختلاف البسيط جديدًا جدًا ومحرجًا بعض الشيء في البدء في عين امرأة عاشت في مدينة أمريكية صاخبة مزدحمة، لكنها أحبت الود والحرارة الجليتين وتأثرت بهما. لم تكد تتجاوز السقيفة الحجرية إلى الكنيسة حتى وقع الحدث العظيم هذا اليوم، فقد انعطفت العربة القادمة من القلعة بخيولها الجميلة وخدمها الطوال ذوي البزات، عند الناصية وآخر الدرب الأخضر.

«ها قد جاؤوا!»، تردد الخبر من متفرج لآخر.

ثم وقفت العربة، ونزل توماس وفتح الباب، وقفز صبي صغير يرتدي بدلة من القطيفة السوداء له شعر لامع متموج.

نظر إليه كل رجل وامرأة وطفل بفضول.

«إنه نسخة من النقيب!»، قال المتفرجون الذين تذكروا أباه، «إنه النقيب بنفسه عاد إلى الحياة».

وقف هناك في نور الشمس ناظرًا إلى الإيرل، وتوماس يساعد الرجل النبيل في الخروج بأقصى اهتمام وود يمكن تصوره. وحسب الصبي أن بوسعه المساعدة، فمد يده وقدم كتفه كأن طوله سبعة أقدام، وكان جليًا للجميع أن إيرل دورنكورت لم يثر خوفًا في صدر حفيده، رغم نزقه مع الآخرين.

«اتكئ علي فحسب»، سمعوه يقول، «يا لفرحة الناس برؤيتك، وإنهم ليعرفونك جيدًا!».

«اخلع قبعتك أيها اللورد»، قال الإيرل، «إنهم ينحنون لك».

«لي؟!»، قال اللورد خالعًا قبعته في لحظة، عارضًا شعره اللامع على الحشد ومديرًا لهم عينين براقتين محتارتين وهو يحاول الانحناء للجميع في الوقت نفسه.

«بارك الله سيادتك»، قالت المرأة العجوز المحدودبة ذات الشملة الحمراء التي تحدثت إلى أمه، «لتعش طويلًا!».

«أشكرك يا سيدتي»، قال اللورد، ثم دخلا الكنيسة ونظر إليهما الناس وهما يشقان طريقهما في الممر نحو المقصورة المربعة ذات الوسائد والستائر الحمراء. حين اتخذ اللورد مجلسه، اكتشف اكتشافين أسعداه؛ أولهما أن بوسعه النظر إلى أمه عبر الكنيسة حيث جلست وابتسمت له. وثانيهما تمثالان منحوتان من الحجر مقابلين لبعضهما ركعا قرب أحد طرفي المقصورة، وهما يركعان على جانبي عمود يحمل كتابي قداس حجريين، وأيديهما مطوية كأنهما يصليان وثيابهما عتيقة وغريبة، وعلى اللوح قربهما كتب شيء قرأ فيه الكلمات الغريبة.

«هنا يرقد جسد آرثر الأول إيرل دورنكورت، وجسد أليسن هلدغريد زوجته».

«أيمكنني أن أهمس؟»، سأل اللورد وقد نهشه الفضول.

«ما الأمر؟»، قال جده.

«من هما؟».

«بعض أسلافك الذين عاشوا قبل بضع مئة سنة»[1]، أجاب الإيرل.

قال اللورد وهو ينظر إليهما باحترام، «ربما ورثت تهجئتي عنهما»، ثم تقدم ليجد مكانه في قداس الكنيسة، وحين بدأت الموسيقى وقف ونظر إلى أمه باسمًا، فقد كان محبًا للموسيقى وكثيرًا ما غنى مع أمه. فانضم إلى البقية، وصوته الصافي العذب العالي يعلو واضحًا مثل غناء عصفور، وقد نسي نفسه تمامًا في سعادته به، كما نسي الإيرل نفسه قليلًا، وهو جالس في زاويته من المقصورة المصونة بالستائر، وراقب الصبي. وقف سدريك حاملًا سفر المزامير الكبير مفتوحًا يغني بكل قوته الطفولية، ووجهه مرفوع قليلًا بسعادة، وتسلل شعاع طويل من الشمس تسلل منحدرًا عبر لوح ذهبي من نافذة الزجاج المعشق وهو يغني، وأشرق على الشعر المنساب على رأسه الصغير. شعرت أمه، وهي تنظر إليه عبر الكنيسة، بإثارة تعبر قلبها، وعلا فيه الدعاء أيضًا، دعاء بأن تدوم سعادته الصافية

(١) كتبت العبارة كتابة قديمة جعلت سدريك يظنها أخطاء في التهجئة.

البسيطة لقلبه الطفل، وألا تجلب له تلك الثروة التي هبطت عليه فجاة لا شرًا ولا خطأ، وكان في قلبها الرقيق الكثير من الخواطر في هذه الأيام الأخيرة.

«أوه يا سدي»، قالت له الليلة الماضية وهي تتعلق به لتتمنى له ليلة سعيدة قبل مغادرته، «أوه يا سدي يا عزيزي، أتمنى لأجل سعادتك لو كنت ذكية جدًا وأستطيع قول الكثير من الأشياء الحكيمة. فكن طيبًا يا عزيزي، وتحلَّ بالطيبة والشجاعة والعطف والصدق، وعندئذ لن تؤذي أحدًا طوال حياتك، وقد تساعد الكثيرين، وقد يصبح العالم الكبير أفضل لأن ابني الصغير ولد فيه، وهذا أفضل شيء يا سدي، إنه أفضل من كل شيء آخر، أن يصبح العالم أفضل قليلًا لأن رجلًا عاش فيه حتى إن كان أفضل قليلًا يا غالي».

ولدى عودته إلى القلعة كرر اللورد على مسامع جده كلمات أمه.

«وتذكرتك حين قالت ذلك»، قال، «وقلت لها إن العالم هكذا لأنك فيه، وسأحاول أن أكون مثلك».

«وماذا قالت لك؟»، سأل الإيرل بشيء من الضيق.

«قالت إن هذا صحيح، وإن علينا البحث دومًا عن الجيد في الناس وأن نحاول أن نقتدي به».

ربما كان هذا ما تذكره العجوز حين نظر عبر الثنيات المقسمة للستائر الحمراء لمقصورته. كثيرًا من المرات نظر من فوق الرؤوس

إلى حيث جلست زوجة ابنه وحدها، ورأى الوجه الجميل الذي أحبه الراحل المغضوب عليه، والعينين اللتين تشبهان عيني الطفل الجالس بجانبه، ولكن يصعب معرفة ما فكر فيه، وإن كان قاسيًا وصارمًا، أو رق قليلًا.

حين خرجا من الكنيسة، وقف الكثيرون ممن حضروا القداس بانتظار مرورهما. وحين اقتربا من البوابة، وقف رجل حاملًا قبعته بيده وتقدم منهما خطوة ثم تردد. كان فلاحًا متوسط العمر ذا وجه أضناه الهم.

«حسن يا هغنز»، قال الإيرل.

استدار اللورد بسرعة لينظر إليه.

«أوه! أهذا السيد هغنز؟»، قال.

«أجل»، أجاب الإيرل بجفاء، «وأظنه قادمًا ليرى سيده الجديد».

«أجل يا سيدي»، قال الرجل وقد احمر وجهه المسفع من الشمس، «أخبرني السيد نويك أن سيادة اللورد الصغير كان كريمًا ليتحدث بشأني، وحسبت أن علي شكره، إن سمح لي».

لعله شعر بشيء من العجب حين رأى أي صبي كان من فعل له الكثير ببراءة، ووقف هناك ينظر إليه مثلما يفعل واحد من الأطفال التعسين، ومن الواضح أنه لم يدرك مكانته البتة.

«لدي الكثير مما أشكر سيادتك عليه»، قال، «الكثير».

«أوه»، قال اللورد، «لقد كتبت الرسالة فحسب، لكن جدي

من فعل ذلك. غير أنك تعلم عطفه على الآخرين دومًا، هل السيدة هغنز بصحة جيدة الآن؟».

بوغت هغنز قليلًا، فقد تعجب هو أيضًا لسماع سيده النبيل وقد ظهر بشخصية المحسن بكثير من الصفات الآسرة.

«أنا... حسن، أجل يا سيدي»، قال متلعثمًا، «إن السيدة بحال أفضل ما دامت ارتاحت من المشكلة، فقد أقلقتها كثيرًا وأضنتها».

«يسعدني سماع هذا»، قال اللورد، «كان جدي شديد الحزن لإصابة أطفالك بالحمى القرمزية، وأنا كذلك، فقد كان عنده أبناء أيضًا وأنا ابن ابنه كما تعلم».

كان هغنز على شفا الإصابة بنوبة هلع، فقد رأى أن من الآمن والأحفظ ألا ينظر إلى الإيرل. فقد عرف أن حبه الأبوي لأبنائه تجلى في رؤيته لهم مرتين في العام، وأنهم عندما يمرضون يسافر إلى لندن لأنه لا يود أن يزعجه الأطباء والممرضات. فقد كان مرهقًا لأعصاب سيادته حينئذ أن يقال له، وهو ينظر وعيناه تلمعان من تحت حاجبيه الكثين، إنه اهتم لأمر الحمى القرمزية.

قاطعهما الإيرل بابتسامة جميلة «كما ترى يا هغنز، لقد أخطأتم في فهمي أيها الناس، واللورد يفهمني وإن أردت معلومات موثوقة حول طباعي يمكنك سؤاله. اصعد العربة أيها اللورد».

ووثب اللورد ودرجت العربة في الدرب الأخضر وحين انعطفت الناصية إلى الدرب العالي، لم يزل الإيرل يبتسم متجهمًا.

الفصل الثامن



حظي سيد دورنكورت بمناسبات عديدة يبتسم فيها ابتسامته المتجهمة بمرور الأيام، بل كلما ازدادت معرفته بحفيده ابتسم كثيرًا، حتى إن ابتسامته في لحظات فقدت تجهمها. لا شك أن العجوز، قبل ظهور اللورد، قد سئم وحدته وآلام النقرس وسنواته السبعين. بعد حياة طويلة من الإثارة والمتعة لم يكن الجلوس وحيدًا في الغرفة البديعة، والصراخ على الحاجب المذعور الذي كره رؤيته أمورًا مفرحة. ولم يكن الإيرل غبيًا ليجهل أن خدمه يبغضونه، وأن زواره لا يأتون حبًا به، رغم أن بعضهم يستمتع بحديثه الساخر المتهكم الذي لم يذخره عن أحد. كان منذ زمن بعيد قويًا وموفور الصحة فتنقل من مكان إلى آخر متظاهرًا بإمتاع نفسه، رغم أنه لم يستمتع حقًا. ولما بدأت صحته تخونه، شعر بالسأم من كل شيء وحبس نفسه في دورنكورت، مع النقرس والصحف والكتب. لكنه لم يستطع القراءة طوال الوقت، وازداد ضجره أكثر فأكثر، كما قال. كره الليالي والأيام الطويلة، وغدا أكثر عنفًا وقسوة. ثم جاء

اللورد، وحين رآه الإيرل أرضي غروره الخفي لحسن حظ الصبي. لو كان سدريك صبيًا أقل وسامة لكرهه العجوز، ولم يكن ليمنح نفسه الفرصة ليرى صفات حفيده الحسنة. لكنه شاء أن يرى أن جمال سدريك وطبعه الشجاع نتاج دم دورنكورتي وتشريفًا لسلالة دورنكورت. ثم حين سمع الفتى يتحدث ورأى نشأته الحسنة، رغم جهله الطفولي بمعنى وضعه الجديد، أحب الإيرل حفيده أكثر، بل إنه أخذ يرى نفسه مستمتعًا. إذ أبهجه أن يضع بين اليدين الصغيرتين السلطة لمنح عطية للمسكين هغنز. لم يكترث السيد النبيل بهغنز البتة، ولكن أسعده قليلًا أن يتحدث عن حفيده أهل الريف وأن يحبه المستأجرون حتى في طفولته. ثم أسعده الذهاب إلى الكنيسة مع سدريك ورؤية الاهتمام والحماس الذي أحدثه وصولهما، فقد عرف أن الناس سيتحدثون عن جمال الفتى الصغير، وعن جسده القوي المعتدل الرشيق وعن قامته المنتصبة، ووجهه الجميل وشعره اللامع وسيقولون (كما سمع الإيرل امرأة تقول لأخرى) إن الصبي كان لوردًا بحق. كان سيد دورنكورت عجوزًا متعجرفًا فخورًا باسمه، مزهوًا بلقبه، ويفخر بأن يُري العالم أخيرًا أن آل دورنكورت صار لهم وريث يستحق المكانة التي سيشغلها.

امتطى اللورد المهر صباحًا، وسر الإيرل كثيرًا فنسي ألمه. وحين أحضر السائس الحيوان الجميل الذي قوس عنقه البني اللامع ورفع رأسه الجميل في الشمس، جلس الإيرل قرب النافذة المفتوحة في المكتبة وراقب اللورد الصغير يتلقى درسه الأول في ركوب الخيل. وتساءل إن كان الصبي سيظهر أمارات الخوف، فلم يكن مهرًا

صغيرًا، وكثيرًا ما رأى أطفالًا تخونهم شجاعتهم في درسهم الأول لركوب الخيل.

امتطى اللورد ظهر الحصان ببهجة عظيمة. لم يسبق له امتطاء مهر قبلًا، وكان ذا همة عالية. قاد السائس ولكنز الحيوان من اللجام ذهابًا وإيابًا أمام نافذة المكتبة.

«إنه ولد شجاع»، علق ولكنز في الإسطبل لاحقًا مبتسمًا ابتسامات كثيرة، «لم أجد عناء في رفعه، ولم يكن من يكبرونه ليجلسوا بهذا الاعتدال في ركوبه. لقد قال لي «أأجلس معتدلًا يا ولكنز؟ إنهم يجلسون باعتدال في السيرك»، وقلت أنا «إن سيادتك تجلس مستقيمًا مثل سهم». فضحك مسرورًا قدر استطاعته وقال «حسن، أخبرني إن لم أجلس معتدلًا يا ولكنز!»».

لكن الجلوس باعتدال وأن يقاد ماشيًا لم يرضياه تمامًا. وبعد دقائق قليلة تحدث اللورد إلى جده الذي يراقبه من النافذة:

«ألا يمكنني الذهاب بنفسي؟» سأل، «وألا يمكنني أن أسرع أكثر؟ لقد اعتاد صبي الجادة الخامسة الخبب والهرولة».

«أتظن أن بوسعك الخبب والهرولة؟»، سأل الإيرل.

«أود أن أحاول»، قال اللورد.

فأشار الإيرل إلى ولكنز الذي جلب الحصان عند الإشارة وامتطاه وأخذ مهر اللورد بلجام قيادة.

قال الإيرل: «دعه يخب الآن».

كانت الدقائق القليلة التالية مثيرة للفارس الصغير، فوجد أن الخبب ليس سهلًا بقدر المشي. وكلما خب المهر أسرع، ازداد الأمر صعوبة.

«إنه يرتج كثيرًا»، قال لولكنز، «هل يرتج بك؟».

«كلا يا سيدي، ستعتاد ذلك بمرور الوقت. ارفع ركابك».

«إنني أرفعه طوال الوقت»، قال اللورد.

كان يعلو ويهبط بشيء من عدم الراحة وبالكثير من الاهتزاز والانتفاض. وانقطع نفسه واحمر وجهه، لكنه تماسك بكل قوته، وجلس معتدلًا قدر مستطاعه، ورأى الإيرل ذلك من النافذة. وحين عاد الراكبان إلى مدى يسمح بالحديث بعد أن اختفيا بين الأشجار لبضع دقائق، لم تكن قبعة اللورد على رأسه ووجنتاه بحمرة زهر الخشخاش، وشفتاه مزمومتين، لكنه لم يزل يخب مثل رجل.

«قف لحظة»، قال جده، «أين قبعتك؟».

لمس ولكنز قبعته، وقال وقد بدت الفرحة على وجهه «لقد سقطت سيادتك، ولم يسمح لي بالتوقف لالتقاطها».

«إنه ليس خائفًا، أليس كذلك؟»، سأل الإيرل بجفاف.

«أتسأل سيادتك عن خوفه!؟»، قال ولكنز، «لن أقول إنه يعلم معنى الخوف. لقد علمت ركوب الخيل للكثير من الصغار قبلًا، ولم أر واحدًا يفوقه عزمًا».

«أأنت متعب؟»، قال الإيرل للورد، «أتود التوقف؟».

«إنه يرتج أكثر مما ظننت»، أقر اللورد بصراحة، «وهذا متعب قليلًا لكني لا أريد التوقف. بل أريد التعلم، وما إن ألتقط أنفاسي حتى أعود من أجل القبعة».

لو تعهد أذكى الناس في العالم لتعليم اللورد كيف يسعد الرجل العجوز الذي يراقبه، لما علمه شيئًا يسعده أكثر من هذا. حين خب لمهر ثانية نحو الجادة، تدفق لون شاحب إلى الوجه الصارم العجوز، ولمعت العينان تحت الحاجبين الكثين سعادة، كأنما لم يتوقع سيادته أن يشعر بها ثانية. وجلس وراقب بلهفة حتى عاد وقع حوافر الحصانين. وعندما عادا، بعد بعض الوقت، عادا بسرعة أكبر، ولم تزل قبعة اللورد ليست على رأسه، بل يحملها ولكنز من أجله، ووجنتاه أكثر احمرارًا من ذي قبل وشعره يطير قرب أذنيه، لكنه جاء بهرولة نشيطة.

«يا إلهي!»، قال لاهثًا وهما يتوقفان، «لقد هرولت. لم أفعل ذلك جيدًا بقدر صبي الجادة الخامسة، لكني فعلتها وظللت ثابتًا».

صار هو وولكنز والمهر أصدقاء مقربين بعد ذلك، ولم يمر يوم لم يرهم فيه أهل الريف كلهم معًا يهرولون بمرح على الطريق الرئيس أو عبر الدروب الخضراء. وكان الأطفال في الأكواخ يركضون إلى الأبواب لرؤية المهر الصغير البني المختال، والصبي الصغير الرشيق الجالس باعتدال على السرج، فيخلع اللورد الصغير قبعته ويلوح بها لهم، ويهتف «مرحبًا! صباح الخير!»، بأسلوب بسيط وحرارة كبيرة، وقد يتوقف أحيانًا ويتحدث إلى الأطفال. ومرة عاد ولكنز

إلى القلعة يحكي قصة عن إصرار اللورد على النزول قرب مدرسة القرية ليركب مهره صبي أعرج ومتعب ويعود إلى البيت.

«ويا لحظي»، قال ولكنز حين سرد القصة في الإسطبلات، «ويا لحظي إذ لم يعرف بأمر أحد آخر! لم يسمح لي بالنزول، بل قال إن الصبي قد لا يشعر بالارتياح لركوب حصان كبير، وقال «إن هذا الصبي أعرج وأنا لست كذلك يا ولكنز، وأريد أن أتحدث إليه أيضًا». وصعد الفتى وسيدي يمشي قربه ويداه في جيوبه وقبعته على مؤخرة رأسه، ويصفر ويتحدث ببساطة كما يشاء! وحين وصلنا الكوخ وخرجت أم الصبي لترى ما يحدث، خلع قبعته وقال «لقد جلبت ابنك للبيت يا سيدتي، لأن ساقه تؤلمه ولا أظن تلك العصا تكفيه ليتكئ عليها. وسأطلب من جدي أن يطلب صنع عكازين من أجله». واللعنة عليّ إن لم تُصعق تلك المرأة، وينبغي لها! لقد حسبت أنني سأموت من الدهشة!».

لم يغضب الإيرل حين سمع القصة، كما خشي ولكنز، بل ضحك من قلبه. ودعا إليه اللورد، وجعله يحكي له الأمر كاملًا من البداية حتى النهاية، ثم ضحك ثانية. ووقفت عربة دورنكورت حقًا بعد أيام قلائل في الدرب الأخضر أمام الكوخ الذي يسكنه الصبي الأعرج. وقفز اللورد ومشى حتى الباب حاملًا زوجًا من العكازات الجديدة القوية الخفيفة على كتفه كأنما يحمل سلاحًا، وقدمهما للسيدة هارتل (اسم الصبي الأعرج هارتل) وقال هذه الكلمات:

«مع تحيات جدي، وهي لابنك إن سمحت، ونرجو له الشفاء».

«قلت مع تحيتك»، أوضح للايرل حين عاد إلى العربة، «لم تقل لي لكني ظننتك نسيت. لا بأس بهذا، أليس كذلك؟».

وضحك الإيرل ثانية ولم يقل عكس ذلك. كان الاثنان يزدادان تقاربًا كل يوم، ويتعمق إيمان اللورد بإحسان جده وفضائله، ولم يخامره أدنى شك في كون جده أكثر الرجال المسنين ألفة وكرمًا. فقد وجد أمنياته تلبى قبل أن ينطقها ومنحت له البهجة والهدايا، حتى إنه تعجب أحيانًا من ممتلكاته. من الواضح إنه يحصل على كل ما يريد، ويفعل كل ما يشتهي. ورغم أن هذه حتمًا ليست بالخطة الحكيمة لاتباعها مع كل الصبيان الصغار، لكن اللورد تمالك نفسه وانسجم معها انسجامًا مدهشًا. ولعله فسد بذلك، رغم طبعه العذب، لولا الساعات التي يقضيها مع أمه في بيت الصيد. لقد راقبته أعز أصدقائه عن كثب وبحنان، وكان للاثنين أحاديث طويلة، ولم يعد يومًا إلى القلعة دون قبلاتها على وجنتيه، ودون أن يحمل في قلبه شيئًا من الكلمات البسيطة النقية التي تستحق التذكر.

صحيح أن شيئًا واحدًا حير الصبي كثيرًا، وقد فكر في الأمر الغامض أكثر مما ظن الآخرون، ولم تعلم أمه كم فكر فيه. أما الإيرل فلوقت طويل لم يخامره شك أنه فكر فيه. ولكن لأن الصبي سريع الملاحظة، لم يكف عن التساؤل عن عدم لقاء أمه وجده، إذ أدرك أنهما لم يلتقيا قط. ولم يترجل الإيرل من العربة حين وقفت أمام بيت الصيد. وفي المرات القليلة التي ذهب فيها سيادته إلى الكنيسة ترك اللورد يتحدث إلى أمه في السقيفة وحدهما، أو أن يعود معها

إلى البيت. ورغم ذلك أرسلت الزهور والفاكهة إلى بيت الصيد من دفيئات القلعة كل يوم. غير أن الفعل الفاضل للإيرل الذي جعله على قمة الكمال في عيني سدريك، كان ما فعله بعد يوم الأحد الأول، عندما عادت السيدة إرول من الكنيسة مشيًا دون مرافقات. وعندما ذهب سدريك لزيارة أمه بعد أسبوع، وجد عند الباب عربة خفيفة وحصان كميت جميل، بدلًا من العربة الكبيرة والحصانين المتبخترين.

«هذه هدية منك لأمك»، قال الإيرل بغتة، «لا يمكنها أن تمشي في الريف، بل تحتاج عربة، وسيعتني بها الرجل الذي يقودها. إنها هدية منك».

لم يخف اللورد فرحته، ولم يتمالك نفسه إلا حين وصل بيت الصيد. كانت أمه تجمع الزهور في الحديقة، فألقى بنفسه خارج العربة الصغيرة وطار إليها.

قال: «أتصدقين هذا أيتها الغالية؟ هذه العربة لك! يقول إنها هدية مني، إنها عربتك لتقوديها أينما شئت».

كان سعيدًا جدًا فلم تجد ما تقوله. لم تطق إفساد فرحته برفضها الهدية وإن جاءت من الرجل الذي ناصبها العداء. اضطرت للركوب في العربة حاملة ورودها، وسمحت بأخذها في جولة، واللورد يقص عليها القصص عن طيب جده وأنسه. كانت قصصًا بريئة للغاية فلم تستطع إلا أن تضحك قليلًا، ثم تجذب الصبي نحوها وتقبله، وهي سعيدة لأنه لم ير إلا الجانب الطيب في العجوز، الذي ليس له من الأصدقاء إلا قلة.

كتب اللورد رسالة إلى السيد هوبز. كانت رسالة طويلة، وبعد أن كتب نسختها الأولى، جلبها إلى جده ليدقِّقها قائلًا:

«لأنني لم أكن متأكدًا من التهجئة، وإن أخبرتني بأخطائي سأعيد كتابتها».

وهذا ما كتبه:

عزيزي السيد هوبز

أريد أن أخبرك عن جدي إنه أفضل إيرل يلتقيه المرء. وقد كنت مخطئًا عن كون الإيرلات مستبدين، فهو ليس مستبدًا البتة. ولو عرفته لصرتما صديقين حميمين، وأنا واثق من ذلك. إنه يعاني النقرس في قدمه، وذاك ألم عظيم، لكنه صبور للغاية. أزداد حبًا له كل يوم، وما من أحد لا يحب إيرلًا كهذا؛ عطوفًا على كل من في هذا العالم. ليتك تتحدث معه فهو يعرف كل شيء في العالم، ويمكنك أن تسأله أي سؤال. لكنه لم يلعب كرة القاعدة قط. لقد منحني مهرًا وعربة، ولأمي عربة جميلة. ولدي ثلاث غرف وألعاب من شتى الصنوف تدهشك. وستعجب بالقلعة والحديقة، فهي قلعة كبيرة يمكن أن يضيع المرء فيها. يقول لي ولكنز، وولكنز هو السائس، يقول إن تحت القلعة ديماس. كل شيء في الحديقة جميل يدهشك، ففيها أشجار كبيرة وغزلان وأرانب وطرائد في مكامنها. إن جدي غني جدًا لكنه ليس متكبرًا ولامتعجرفًا مثلما حسبتَ الإيرلات دومًا. أحب أن أكون معه، والرجال مهذبون ولطيفون يخلعون قبعاتهم لك، والنساء ينحنين ويقلن أحيانًا

«باركك الرب». يمكنني ركوب الحصان، لكنه رجني في البداية حين حاولت الخبب. سمح جدي لرجل فقير بالبقاء في مزرعته، حين عجز عن سداد الإيجار، وذهبت السيدة ميلن لأخذ النبيذ وغيره لأطفاله المرضى. أود رؤيتك، وأتمنى لو عاشت الغالية في القلعة، لكني سعيد لأني أراها كثيرًا، وأحب جدي والجميع يحبونه. اكتب لي سريعًا من فضلك.

صديقك المحب

سدريك إرول

ملاحظة: لا أحد في ديماس جدي، إذ لم يسمح بسجن أحد.

ملاحظة: إنه إيرل طيب يذكرني بك. إنه محبوب من الجميع.

«أتفتقد أمك كثيرًا؟»، سأل الإيرل حين فرغ من القراءة.

قال اللورد: «أجل. أفتقدها دومًا».

وذهب ووقف أمام الإيرل ووضع يده على ركبته ناظرًا إليه.

«أما أنت فلا تفتقدها، أليس كذلك؟»، قال.

«أنا لا أعرفها»، أجاب سيادته بشيء من التحفظ.

قال اللورد: «أعرف ذلك، وهذا ما جعلني أتساءل. لقد أخبرتْني ألا أسألك أي سؤال، ولن أفعل. ولكني لا أكف عن التفكير أحيانًا كما تعلم، وهذا يحيرني. لكني لن أسألك أي سؤال. وحين أفتقدها كثيرًا سأذهب وأنظر من النافذة، إلى حيث أرى ضوء مصباحها يسطع من أجلي كل ليلة خلال براح بين الأشجار. إنها

مسافة طويلة، لكنها تضعه في نافذتها ما إن يحل الظلام، فأراه يلمع بعيدًا وأعلم ما يقول».

«وماذا يقول؟»، سأل الإيرل.

«يقول «ليلة سعيدة، وليحمك الله في الليل!» هذا ما اعتادت قوله لي حين كنا معًا، إذ اعتادت قول هذا كل ليلة لي. وتقول كل صباح «باركك الرب طوال النهار»، فلذا تراني محصنًا طوال الوقت».

«تمامًا. ليس عندي شك في هذا»، قال الإيرل بجفاف، ثم عقد حاجبيه المعلقين، ونظر إلى الصبي بإمعان ولوقت طويل. وتساءل اللورد عم يفكر فيه.

الفصل التاسع



فكر إيرل دورنكورت هذه الأيام بكثير من الأمور التي لم يفكر بها من قبل، وكانت كل هذه الأفكار بصورة أو بأخرى متعلقة بحفيده. كان غروره أبرز طباعه، وقد أرضاه الصبي بكل شكل. وأخذ يشعر باهتمام جديد بالحياة عبر هذا الغرور، وأخذ يستمتع بعرض وريثه على العالم، وقد عرف العالم خيبته بأبنائه، فظهرت عندئذ لمسة من الظفر المستحسن في عرض هذا اللورد الجديد، الذي لن يخيب ظن أحد. وتمنى لو قدّر الصبي سلطته حق قدرها وأدرك فخامة مكانته، وتمنى أن يدرك الآخرون ذلك أيضًا وأعد الخطط من أجل مستقبله.

وجد نفسه، خفية أحيانًا، يتمنى لو كانت حياته السابقة حياة أفضل، وليس فيها ما قد يثير الذعر في هذا القلب الطفل النقي إن عرف الحقيقة. لم يسره أن يتخيل نظرة الوجه الجميل البريء إن عرف صاحبه، بأي مناسبة، أن جده سمي لسنوات طويلة بإيرل دورنكورت الشرير. وجعله تخيل ذلك يشعر بشيء من القلق، ولم

يرد للصبي أن يعلم بذلك. وكان أحيانًا ينسى آلامه في خضم حماسه الجديد، ففوجئ طبيبه بعد فترة أن صحة مريضه النبيل تتحسن أكثر مما تخيل. وربما تحسن الإيرل لأن الوقت لم يمر عليه بطيئًا، وكان عنده شيء يفكر به إلى جانب آلامه ونقائصه.

ذات صباح جميل، دهش الناس لرؤية اللورد يمتطي مهره مع رفيق آخر غير ولكنز. وقد امتطى هذا الرفيق حصانًا عاليًا ولم يكن سوى الإيرل نفسه، لقد كان اللورد هو من اقترح هذه الفكرة، إذ قال لجده حزينًا وهو يمتطي مهره:

«ليتك تذهب معي. أشعر بالوحدة حين أذهب، لأنك تُركت وحدك في قلعة كبيرة. ليتك تستطيع ركوب الخيل أيضًا».

وقد ثار حماس عظيم في الإسطبلات بعد بضع دقائق، حين وصل أمر بأن يسرج الحصان سِلِم من أجل الإيرل. وصار سِلِم يسرج كل يوم، واعتاد الناس رؤية الحصان العالي الرمادي يحمل الرجل العجوز الطويل الرمادي ذا الوجه الوسيم الصارم الشبيه بوجه الصقر، إلى جانب المهر البني الذي يحمل اللورد. وازداد الراكبان قربًا أكثر من ذي قبل في جولاتهما معًا عبر الدروب الخضر. وشيئًا فشيئًا، سمع الإيرل العجوز أمورًا كثيرة عن «الغالية» وحياتها. وكان اللورد يتحدث جذلًا وهو يخب قرب الحصان الكبير، وما من رفيق صغير كان أكثر إبهاجًا منه ومن طبعه السعيد. وكان يتحدث معظم الوقت، أما الإيرل فصامت ينصت ويراقب الوجه الفرح المشرق. وكان يخبر رفيقه الصغير أحيانًا أن يجعل المهر يعدو، وحين

ينطلق الصبي مسرعًا معتدل الظهر جسورًا يراقبه، وفي عينيه لمعان الزهو والسعادة، وبعد جري كهذا يعود اللورد ملوحًا بقبعته هاتفًا ضاحكًا، فقد شعر دومًا أنه وجده صديقان حميمان حقًا.

عرف الإيرل أن زوجة ابنه لم تركن إلى الكسل، ولم يمض وقت طويل حتى عرف أن الفقراء عرفوها جيدًا، وأن عربتها الخفيفة وقفت أمام أي منزل حل به حزن أو مرض أو فقر في المنازل.

قال اللورد مرة: «أتعلم أنهم جميعًا يقولون «باركك الرب!» عندما يرونها، ويسعد الأطفال. بعض الفتيات يترددن على بيتها ليتعلمن الخياطة، وقالت إنها تشعر بالغنى الآن وتود مساعدة الفقراء».

استاء الإيرل حين عرف أن لأم وريثه وجهًا شابًا جميلًا وتبدو مثل سيدة نبيلة كأنها دوقة، ولم يعجبه بصورة ما أن يعلم أنها محبوبة والفقراء يجلونها. كما أنه شعر بنوبة قاسية من الغيرة، عندما وجد أنها تملأ قلب ابنها، وأن الصبي متشبث بها لأنها محبوبته الأعز. وتمنى الرجل العجوز لو كان هو الأول وليس له منازع.

في الصباح نفسه أوقف حصانه على نقطة مرتفعة من البراح الذي مرا به، وأشار بسوطه إلى المنظر الفسيح الجميل الممتد أمامهما.

«أتعلم أن كل هذه الأرض لي؟»، قال للورد.

«حقًا؟»، قال اللورد، «إنها كبيرة جدًا لتكون ملكًا لشخص واحد، ويا لجمالها!».

«أتعلم أنها ستؤول لك يومًا ما، هذه وأخر كثيرة أيضًا؟».

«لي؟!»، قال اللورد بصوت ملؤه الدهشة، «متى؟».

«عندما أموت»، أجاب جده.

«لست أريدها إذن»، قال اللورد، «لأني أريدك أن تعيش إلى الأبد».

«هذا لطف منك»، قال الإيرل بطريقته الجافة، «ورغم ذلك، فإنها ستؤول إليك كلها. ستكون أنت إيرل دورنكورت يومًا ما».

جلس اللورد هادئًا جدًا على سرجه لبضع دقائق، ونظر إلى الأراضي الواسعة والمزارع الخضراء، والأجمات الجميلة والأكواخ على الدروب والقرية الجميلة، وفوق الأشجار حيث ترتفع بريجات القلعة رمادية وفخمة، ثم تنهد تنهيدة قصيرة غريبة.

«بم تفكر؟»، سأل الإيرل.

أجاب اللورد «أفكر بأنني صبي صغير! وبما قالته لي الغالية».

«وما ذاك؟»، سأل الإيرل.

«قالت ليس سهلًا على المرء أن يكون ثريًا جدًا، وإن ملك امرؤ ما أشياء كثيرة جدًا فسينسى أحيانًا أن الآخرين ليسوا محظوظين مثله، وإن الغني عليه دومًا أن يكون حذرًا ويحاول أن يتذكر. أخبرتها عن طيبتك وقالت إن هذا أمر حسن، لأن الإيرل ذو سطوة كبيرة، وإن اهتم بمباهجه فحسب ولم يفكر قط بالآخرين الذي يعيشون على أراضيه، فقد يقعون في متاعب بوسعه درؤها،

وإن هؤلاء ناس كثيرون، وسيكون أمرًا صعبًا. وكنت أنظر إلى كل البيوت وأفكر كيف سأعرف أمور الناس حين أصبح إيرلًا. هل عرفت أمورهم؟».

أما معرفة سيادته بمستأجريه فقد اقتصرت على معرفة من منهم لم يدفع إيجاره بسرعة، وفي طرد أولئك الذين لم يفعلوا، وقد كان هذا سؤالًا صعبًا حقًا. «يعرفها لي نويك»، قال وشد شاربه الكبير الرمادي، ونظر إلى سائله الصغير بشيء من القلق، «سنذهب إلى البيت الآن»، ثم أضاف، «وعندما تصبح إيرلًا احرص على أن تكون إيرلًا أفضل مني!».

التزم الصمت في طريق عودتهما، وشعر أنه أمر لا يصدق أنه أولع بهذا الصبي، وهو الذي لم يحب أحدًا في حياته. في البداية كان مسرورًا وفخورًا بجمال سدريك وشجاعته، لكن في شعوره الآن شيئًا أكبر من الفخر. وضحك ضحكة جافة عابسة لنفسه أحيانًا حين أدرك أنه يحب وجود الصبي قربه، ويحب سماع صوته، وأنه تمنى في سره حقًا أن يبادله الحب ويظن به حسنًا.

«إنني رجل عجوز خرف وليس عندي شيء آخر أفكر به». قال لنفسه، رغم معرفته أن هذا ليس هو السبب، ولو سمح لنفسه بالإقرار بالحقيقة، لربما وجد نفسه مضطرًا للاعتراف أن الأمور التي أسرته رغمًا عن نفسه، كانت سمات لم يتحل بها يومًا، من قبيل الطبع الصريح الحنون الوفي، والصدق الرقيق الذي لا يفكر بسوء أبدًا.

بعد أسبوع من جولتهما، دخل اللورد إلى المكتبة، بعد زيارة لأمه، بوجه قلق مهموم، وجلس على الكرسي عالي الظهر الذي جلس عليه ليلة وصوله، ونظر إلى الجمر في المصطلى لوهلة. وراقبه الإيرل صامتًا متسائلًا عن التالي، وكان من الجلي أن في ذهن سدريك شيئًا، ورفع نظره في النهاية وقال «أيعلم نويك بأمور كل الناس؟»، سأل.

«إن عمله أن يعرف أمورهم»، قال سيادته، «لقد أهمل في عمله، أليس كذلك؟».

لم يسعد الإيرل شيء ولا هذبه أكثر من اهتمام الصغير بمستأجريه. إذ لم يسبق له أن اهتم بهم، لكنه أبهجه تمامًا رؤية الجدية الطريفة التي تعتمل في رأس اللورد الأجعد، رغم عاداته الطفولية في التفكير ووسط كل مسراته الطفولية وتفاؤله.

قال اللورد ناظرًا إليه بعين متسعة ملؤها الذعر «ثمة مكان رأته الغالية. إنه في الطرف الآخر من القرية، فيه البيوت متلاصقة ومتداعية، ولا يمكن للمرء أن يتنفس، والناس هناك فقراء فقرًا مدقعًا وكل شيء رهيب! تصيبهم الحمى كثيرًا ويموت الأطفال، والعيش هكذا يجعلهم أشرارًا وشديدي الفقر والبؤس. إن حالهم أسوأ من حال مايكل وبريجيت، فالمطر يتسرب من السقوف. ذهبت الغالية لرؤية امرأة فقيرة عاشت هناك، ولم تسمح لي بالاقتراب منها حتى غيرت كل ثيابها، وقد همل الدمع من عينيها حين أخبرتني بالأمر».

واخضلت عيناه بالدمع لكنه ابتسم.

«قلت لها إنك لم تعلم، وإنني سأخبرك»، قال وقفز نازلًا وجاء واستند إلى كرسي الإيرل، «يمكنك إصلاح الأمور، كما فعلت مع آل هغنز. إنك تجعل الأمور أحسن للجميع. قلت لها إنك ستفعل، وإن نويك نسي إبلاغك».

نظر الإيرل إلى اليد على ركبته. لم ينس نويك إخباره، بل لقد حدثه أكثر من مرة عن الحال المزرية في طرف القرية المعروفة باسم إيرل كورت. لقد علم بأمر الأكواخ المتداعية البائسة، والتصريف السيء والجدران الرطبة، والنوافذ المكسورة والأسقف الراشحة، والفقر والحمى والبؤس، فقد رسمها له السيد مودرونت بأقوى الكلمات التي يمكنه قولها. واستخدم سيادته لغة عنيفة في الرد وعندما اشتدت آلام النقرس وقال «كلما عجل أهل إيرل كورت بالموت، ودفنوا في الأبرشية كان ذاك أفضل». وانتهى الأمر هنا. ولكنه حين نقل نظره بين اليد الصغيرة على ركبته وبين الوجه صافي العينين الصادق الجاد، شعر بالخجل من نفسه ومن إيرل كورت.

قال: «حسن. أتريدني أن أبني أكواخًا أفضل؟»، ووضع يده بثقة على اليد الطفولية ومسدها.

«لا بد أن تهدم»، قال اللورد بكثير من الحماس، «هذا ما تقوله الغالية. دعنا... دعنا نذهب ونهدمها غدًا. سيسعد الناس لرؤيتك! سيعلمون أنك جئت لمساعدتهم!» ولمعت عيناه مثل نجمتين في وجهه المشرق.

نهض الإيرل من كرسيه ووضع يده على كتف الصغير «لنخرج ونتنزه على المصطبة»، قال بضحكة قصيرة، «ويمكننا الحديث عن ذلك».

ورغم أنه ضحك مرتين أو ثلاث مرات أخرى وهما يمشيان غدوًا ورواحًا على المصطبة الحجرية الفسيحة، حيث سارا معًا كل مساء جميل، لكنه فكر بشيء لم يسعده، ولم يزل واضعًا يده على كتف رفيقه الصغير.

الفصل العاشر



في الحقيقة وجدت السيدة إِرول الكثير من الأمور المحزنة في أثناء عملها بين الفقراء في القرية الصغيرة، التي بدت جميلة للغاية عند النظر إليها من جانب البراح. لم يكن كل شيء ساحرًا، إن نظر إليه من قريب كما يبدو من بعيد. فقد رأت العطالة والفقر والجهل حيث يجب أن يكون العمل والرفاه. وعرفت بعد فترة أن إرلِبورو عُدت أسوأ قرية في تلك الناحية من الريف. أخبرها السيد موردونت عن الكثير من مصاعبه وإحباطاته، وواجهت هي نفسها قدرًا كبيرًا منها. اختير الوكلاء الذين يديرون الأملاك دومًا لإسعاد الإيرل، ولم يأبهوا لانحطاط حال السكان الفقراء وسوئها. ومن ثم أغفلت الكثير من الأشياء التي يجدر الاهتمام بها، وازدادت الأحوال سوءًا.

أما إيرل كورت فقد كانت عارًا، ببيوتها المتداعية وناسها المرضى الجهلة الفقراء. حين ذهبت السيدة إِرول إلى المكان أول مرة اقشعر بدنها. فقد بدا القبح والرثاثة والحاجة أسوأ في الريف من المدينة، إذ

بدا سهلًا تجنبها هناك. وكلما نظرت إلى الأطفال القذرين المهملين يكبرون وسط الإهمال الموجع والرذائل، تذكرت ابنها الذي يمضي أيامه في قلعة كبيرة فخمة محروسًا ومخدومًا مثل أمير صغير، تلبى كل رغباته، ولا يعرف شيئًا سوى الرفاه والراحة والجمال. وطرأت فكرة جريئة في قلبها الحصيف الصغير الرؤوم. وأخذت ترى شيئًا فشيئًا، كما رأى آخرون، أن من حسن حظ ابنها سعادة الإيرل به كثيرًا، وأنه لن يرفض له أمرًا أراده.

«سيمنحه الإيرل أي شيء»، قالت للسيد موردونت، «وسيلبي له كل أهوائه. فلم لا يُستغل هذا الدلال لصالح الآخرين؟ وأرى أنه لا بد من إيصال ذلك».

لقد وثقت بالقلب الصغير العطوف، فأخبرت الصبي بقصة إيرل كورت، متأكدة أنه سيحدث جده عنها، وأملت أن تلي ذلك بعض العواقب الحسنة.

وقد تلته عواقب حسنة، وأثار ذلك استغراب الجميع.

لقد كانت ثقة الحفيد المطلقة بجده أقوى سلطة تؤثر في الإيرل. فقد آمن سدريك دومًا أن جده سيفعل الصواب والصالح، ولم يستطع تغيير رأيه ليدرك أنه ليس عنده نزوع ليكون كريمًا البتة، وأنه أراد فرض رغبته دومًا، سواء أكان ذاك صوابًا أم خطأ. وكان جديدًا عليه أن ينظر له بعين الإعجاب على أنه المحسن لكامل الجنس البشري، وأنه جوهر النبالة، ولم يعجبه النظر في العينين البنيتين المحبتين وقول «أنا عجوز محتال قاس أناني، ولم أفعل قط أشياء عطوفة ولم أعبأ

بإيرل كورت أو بالفقراء»، أو شيء من هذا القبيل يؤدي الغرض نفسه. غير أنه تعلم حب ذلك الصبي ذي خصل الحب الشقراء، وشعر أنه يفضل القيام بفعل لطيف بين الفينة والأخرى. وهكذا، رغم أنه ضحك من نفسه، بعد بعض التفكير، أرسل في طلب نويك، وكان له معه لقاء طويل حول القرية، وأمر بهدم الأعشاش المتداعية وبناء بيوت جديدة.

قال بجفاف: «إن اللورد هو من يصر على ذلك، إذ يرى أن ذلك سيحسن العقار. يمكنك إخبار السكان أن الفكرة فكرته»، ونظر إلى اللورد الصغير، المستلقي على بساط المصطلى يلعب مع دوغال. صار الكلب الكبير رفيق الفتى الدائم، ولحقه أينما ذهب ماشيًا برزانة خلفه حين يمشي، ومهرولًا خلفه بإجلال حين يمتطي حصانه أو يستقل العربة.

سمع كل من أهل القرية وأهل البلدة طبعًا بخطة الترميم. لم يصدق أحد منهم الأمر في البدء، ولكن بعدما وصل جيش صغير من العمال وبدأوا بهدم الأكواخ المتداعية المتصدعة، أدرك الناس أن اللورد أسدى لهم صنيعًا مرة أخرى، وأن عار إيرل كورت سيزول بفضل وساطته البريئة. ولو علم أنهم تحدثوا عنه وأثنوا عليه في كل مكان وتنبؤوا له بأمور عظيمة حين يكبر لدهش للغاية! لكنه لم يتوقع ذلك، بل عاش حياته الطفولية السعيدة البسيطة، يرقص فرحًا في الحديقة ملاحقًا الأرانب إلى جحورها، مستلقيًا على العشب تحت الأشجار، أو على البساط في المكتبة يقرأ الكتب الجميلة ويحدث

الإيرل عنها. ثم يقص القصص على أمه ويكتب رسائل طويلة لكل من ديك والسيد هوبز، اللذين يردان بأسلوبهما المعتاد. ويمتطي جواده إلى جانب جده، أو مع مرافقه ولكنز. واعتاد رؤية الناس يستديرون وينظرون إليه حين يتنزهان في سوق المدينة، ولاحظ أن وجوههم تشرق كثيرًا حين يرفعون قبعاتهم، ولكنه ظن هذا لوجود جده معه.

قال مرة وهو ينظر إلى سيادته بابتسامة مشرقة: «إنهم يحبونك جدًا، أترى سعادتهم برؤيتك؟ أرجو أن يحبوني بهذا القدر يومًا. لا بد أن حب الجميع للمرء لأمر جميل». وشعر بالفخر لأنه حفيد رجل محبوب ويثير الإعجاب هكذا.

عندما بنيت الأكواخ، اعتاد الفتى وجده ركوب خيلهما إلى إيرل كورت معًا للنظر إليها. وكان اللورد بالغ الاهتمام، فيترجل من مهره ويذهب للتعرف إلى العمال سائلًا إياهم عن البناء وصنع الآجر، مخبرًا إياهم أمورًا عن أمريكا. وبعد حديثين أو ثلاثة صار قادرًا على تنوير الإيرل فيما يتعلق بصنع الآجر في طريق عودتهما للبيت.

«أحب دومًا معرفة أمور كهذه»، قال، «لأنك لا تعلم أبدًا ما ينتظرك».

كلما غادر العمال، تحدثوا دومًا عنه فيما بينهم وضحكوا من حديثه الغريب البريء، لكنهم أحبوه وأحبوا رؤيته واقفًا بينهم يتحدث ويداه في جيوبه، وقبعته منزاحة للوراء على شعره الأجعد، ووجهه

الصغير مفعم باللهفة. وقالوا دومًا: «لا مثيل له بين الفتيان، وهو فتى صغير لطيف ولبق أيضًا، وليس فيه خصلة سيئة». ويعودون إلى بيوتهم ويخبرون زوجاتهم عنه، والنساء يحدثن بعضهن بعضًا. وهكذا تحدث الكل عنه، أو عرفوا حكاية عن اللورد. وشيئًا فشيئًا عرفوا أن «الإيرل الشرير» وجد شيئًا يهتم به أخيرًا، شيئًا لامس قلبه القاسي الحزين العجوز وغمره دفئًا.

ولكن ما من أحد عرف مقدار ذاك الدفء، وأن الرجل العجوز وجد نفسه يومًا بعد آخر يزداد تعلقًا بالصبي، الوحيد الذي وثق به. ووجد نفسه يتطلع إلى الوقت الذي سيشب فيه سدريك، قويًا ووسيمًا والحياة ممتدة أمامه، ولكنه يظل محتفظًا بقلب حنون وقدرة على عقد الصداقات في كل مكان. وتساءل الإيرل عما سيفعله الفتى وكيف سيستغل مواهبه. وكثيرًا ما راقب الفتى مستلقيًا قرب المصطلى يقرأ كتابًا كبيرًا والضوء يسطع على الرأس الصغير اللامع، فتلمع عيناه الهرمتين ويحمر خداه.

قال في نفسه «يمكن للصبي فعل أي شيء، أي شيء!».

لم يحدث أحدًا قط بشعوره نحو سدريك، وحين يتحدث عنه أمام الآخرين يحدثهم بالابتسامة العابسة ذاتها دومًا. لكن اللورد أدرك سريعًا أن جده يحبه ويحب أن يكون قربه دومًا؛ قريبًا من كرسيه إن كانا في المكتبة، ومقابلًا له على المائدة، أو بجانبه حين يركبان الخيل أو يستقلان العربة، أو يتنزهان نزهتهما المسائية على المصطبة الفسيحة.

قال سدريك مرة وهو يرفع نظره عن كتابه أثناء استلقائه على البساط «أتذكر، أتذكر ما قلت لك في الليلة الأولى بأن نكون صديقين عزيزين. لا أحسب اثنين آخرين يفوقاننا في هذا، أترى ذلك؟».

«علي القول إننا صديقين عزيزين جدًا»، قال سيادته، «اقترب مني».

ثبت الولد عينيه البنيتين على جده بنظرة حزينة.

«عدا أمرًا واحدًا»، أجاب.

«ما الأمر؟»، سأل الإيرل.

صمت اللورد للحظة، فهو لم يشبع الأمر تفكيرًا سدىً.

«ما الأمر؟»، كرر الإيرل.

أجاب اللورد:

«إنها الغالية».

أجفل الإيرل قليلًا، وقال:

«لكنك تراها كل يوم، ألا يكفيك؟».

«لقد اعتدت رؤيتها كل الوقت»، قال اللورد، «واعتادت تقبيلي حين أخلد إلى الفراش ليلًا، وتكون موجودة في الصباح دومًا، ويمكننا إخبار بعضنا بالأمور دون إبطاء».

تبادل العجوز والصغير النظر خلال لحظة صمت، ثم عقد الإيرل حاجبيه.

«ألا تنسى أمك أبدًا؟».

أجاب اللورد «كلا، أبدًا. وهي لا تنساني أبدًا. وما كنت لأنساك لو عشت معك قبلًا، بل سأفكر بك طوال الوقت».

قال الإيرل بعد النظر إليه للحظة أطول: «أقسم بشرفي إنك ستفعل!».

بدت نوبة الغيرة التي انتابته حين تكلم الولد عن أمه أقوى من ذي قبل، وكانت أقوى لولع العجوز بالصبي.

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى اعترضته متاعب أخر، أقسى في مواجهتها. وكاد ينسى مع الوقت أنه كره زوجة ابنه، وقد حدث هذا بطريقة غريبة ومدهشة. قبل اكتمال بناء أكواخ إيرل كورت أقيم حفل عشاء كبير في دورنكورت ذات مساء. ولم تقم حفلة مماثلة في القلعة منذ زمن بعيد، وقبل إقامتها بأيام قلائل جاء السير هاري لوريديل والليدي لوريديل أخت الإيرل الوحيدة، وهو أمر أحدث الكثير من الإثارة في القرية وجعل جرس باب متجر السيدة دبل يجن رنينًا. فقد عرف الجميع أن الليدي لوريديل جاءت إلى دورنكورت مرة واحدة فحسب منذ زواجها قبل خمسة وثلاثين سنة، وكانت سيدة عجوز جميلة شعرها أجعد أبيض ولها غمازتان على خدين كالخوخ، وكانت طيبة. لكنها لم ترض عن أخيها أكثر من رضا العالم عنه، وهي تتحلى بإرادة قوية ولم تخش الإفصاح عن رأيها بصراحة. وقد رأت الإيرل قليلًا بعد عدد من الشجارات معه منذ شبابها.

لقد سمعت عنه كثيرًا من الأمور التي لم تسرها خلال السنوات التي لم يلتقيا فيها. فسمعت بإهماله لزوجته وموت السيدة المسكينة، وإهماله لأبنائه، الابنين الأكبرين الضعيفين الفاسدين السيئين اللذين لم يشرفاه ولم يشرفا أحدًا آخر. ولم تر الابنين الأكبرين بڤيس وموريِس قط. ولكنّ شابًا طويلًا جسورًا وسيمًا له من العمر ثمانية عشر عامًا جاء يومًا إلى حديقة لوريديل، وأخبرها أنه ابن أخيها سدريك إرول، وأنه جاء لرؤيتها لأنه كان مارًا بالقرب، ورغب برؤية عمته كونستانيتا التي سمع أمه تتحدث عنها. فرق قلب الليدي لوريديل لرؤية الشاب وجعلته يبقى معها أسبوعًا وغنجته وتحدثت معه وأعجبت به كثيرًا. فقد كان حلو المعشر رقيق القلب وحين رحل أملت أن تراه ثانية، لكنها لم تره قط، لأن الإيرل كان في مزاج سيء حين عاد إلى دورنكورت وحرم عليه الذهاب ثانية إلى لوريديل. غير أن الليدي لوريديل تذكرته دومًا بحنانها. ورغم خشيتها أنه تهور في زواجه في أمريكا، غير أنها غضبت حين عرفت بنبذ أبيه له، وأن أحدًا لم يعلم أين يعيش أو كيف يعيش. ووصل نبأ موته في نهاية المطاف. ثم وقع بڤيس عن حصانه ومات، ومات موريِس في روما من الحمى. ثم بعد ذلك بلغتها قصة الطفل الأمريكي الذي عثر عليه، وجلب ليكون اللورد.

قالت لزوجها «لا بد أنه سيفسد مثل الآخرين، ما لم تكن أمه صالحة وذات إرادة حرة تساعدها في الاعتناء به».

ولكنها سخطت بشدة حين سمعت أن أم سدريك فرقت عنه.

قالت «هذا مشين يا هاري! تخيل طفلًا بذلك العمر يؤخذ من أمه، ويرافق رجلًا مثل أخي. سيكون إما قاسيًا مع الصبي، أو سيدلله حتى يصبح وحشًا صغيرًا. لو عرفت أن كتابتي إليه ستغير الأمور...»

«لن تفعل يا كونسانيتا»، قال السير هاري.

«أعلم أنها لن تفعل»، أجابت، «أعرف سيادة إيرل دورنكورت جيدًا، لكن هذا مشين».

لم يسمع الفقراء والفلاحون باللورد فحسب، بل عرفه آخرون، إذ تُحدث عنه كثيرًا وقُصت عنه قصص كثيرة؛ عن جماله وطبعه الحلو، وحب الناس له وتأثيره المتزايد على الإيرل، جده. ووصلت هذه الأقاويل عنه إلى طبقة النبلاء في أريافهم، وسمع بأمره في أكثر من مقاطعة في إنجلترا. وتحدث عنه الناس على موائد العشاء، وأشفقت السيدات على أمه الشابة، وتساءلن عن حقيقة وسامة الصبي كما أشيع عنه. أما الرجال الذين عرفوا الإيرل وعاداته فضحكوا بحماس عن إيمان اللورد الصغير بكياسة جده. التقى السير توماس آش من آشوي هول عندما كان في إرلبورو يومًا بالإيرل وحفيده يركبان الخيل معًا، وتوقف وصافح الإيرل وهنأه لتغير مظهره وشفائه من النقرس، وقال حين تحدث عن ذلك لاحقًا «أتعلمون أن العجوز بدا مزهوًا مثل ديك رومي، وأقسم بشرفي إني لست أعجب، لأن عيني ما رأت أجمل من حفيده ولا أحسن، مستقيمًا كالسهم، جالسًا على مهره مثل خيّال صغير».

وشيئًا فشيئًا سمعت ليدي لوريديل عن الطفل، وسمعت عن هغنز والصبي الأعرج والأكواخ في إيرل كورت، وعدد من الأمور الأخرى، وبدأت تتمنى رؤية الصبي. وبينما هي تتساءل كيف يمكن لها ذلك وصلتها رسالة من أخيها يدعوها فيها للقدوم إلى دورنكورت مع زوجها، فدهشت دهشة عظيمة.

«هذا لا يصدق!» قالت متعجبة، «لقد سمعت أقاويل إن الطفل فعل المعجزات، وبدأت أصدق هذا. يقولون إن أخي يعشق الصبي ولا يحتمل بعده عن ناظره، وهو فخور به للغاية. وإنني أظنه يود التباهي به أمامنا»، وقبلت الدعوة في الحال.

حين وصلت قلعة دورنكورت مع السير هنري، كان وقت الأصيل، وذهبت إلى غرفتها من فورها قبل رؤية شقيقها. وبعد أن ارتدت ثيابها للعشاء دخلت غرفة الجلوس، كان الإيرل يقف قرب النار ويبدو طويلًا جدًا ومهيبًا، وقربه وقف صبي يرتدي بدلة من القطيفة السوداء، لها ياقة كبيرة من الدانتيلا؛ صبي وجهه المدور المشرق جميل جدًا أدار لها عينين متفائلتين بنيتين جميلتين، وتعجبت من السرور والدهشة لرؤياه.

بعد أن صافحت الإيرل دعته بالاسم الذي لم تناده به منذ صباها.

«عجبًا يا ملينو، أهذا هو الصبي؟».

«أجل يا كونستانيتا»، أجاب الإيرل، «هذا الصبي، وهذه عمتك الكبرى أيها اللورد، الليدي لوريديل».

«كيف حالك يا عمتي الكبرى؟»، قال اللورد.

وضعت الليدي لوريديل يدها على كتفيه بعد أن نظرت إلى وجهه المرفوع لبضع لحظات، وقبلته بحرارة.

«إنني عمتك كونستانيتا» قالت، «لقد أحببت أباك المسكين، وأنت تشبهه كثيرًا».

«يسعدني سماع أنني أشبهه»، أجاب اللورد، «لأن الجميع أحبوه، بقدر الغالية تمامًا يا عمتي كونستانيتا» (مضيفًا آخر كلمتين بعد صمت لحظة).

سرت الليدي لوريديل وانحنت وقبلته ثانية، ومنذ تلك اللحظة صارا صديقين حميمين.

قالت للإيرل بعد ذلك «حسن يا ملينو، لا يمكن أن يكون الأمر أحسن من هذا».

رد سيادته بجفاف «أظن ذلك. إنه ولد صغير لطيف، ونحن صديقان عزيزان، ويظنني أكثر المحسنين سحرًا وحلاوة معشر. أود الاعتراف لك يا كونستانيتا كما ستلاحظين وإن لم أقل لك، إنني أخشى أن أصبح عجوزًا أحمق أمامه».

«ما رأي أمه بك؟»، سألت الليدي لوريديل باستقامتها المعهودة.

«لم أسألها»، قال الإيرل عابسًا قليلًا.

قالت الليدي لوريديل «حسن، سأكون صريحة معك في البداية يا ملينو، وأخبرك أنني لا أوافق على ما تفعله، وأنني أنوي زيارة

السيدة إِرول بأسرع ما يمكن. فإن أردت الشجار معي فمن الأفضل أن تقول ذلك الآن. ما سمعته عن الشابة يجعلني واثقة أن ابنها مدين لها بكل شيء، وقد علمنا في لوريديل أن مستأجريك الفقراء يحبونها».

«إنهم يحبونه»، قال الإيرل مشيرًا إلى اللورد، «أما السيدة إرول فستجدينها امرأة شابة جميلة، وأنا مدين لها بإعطائها الصبي شيئًا من جمالها. يمكنك الذهاب لرؤيتها إن أردت، كل ما أطلبه أن تبقى في بيت الصيد، وألا تطلبي مني الذهاب لرؤيتها»، وعبس ثانية.

قالت الليدي للسير هنري لاحقًا «لكنه لا يكرهها بقدر ما اعتاد، وهذا جلي لدي، وقد تغير كثيرًا. ورغم أن هذا يبدو محالًا يا هاري، لكني أراه صار إنسانًا، دون شيء سوى حبه للصبي البريء المحب. عجبًا! إن الصبي يحبه حقًا، ويستند على كرسيه وعلى ركبته، وكان أبناؤه يظنون أنهم يعانقون نمرًا».

ذهبت في اليوم التالي لزيارة السيدة إرول وقالت لأخيها حين عادت:

«إنها أروع امرأة رأيتها يا ملينو! لها صوت مثل رنين الفضة، وعليك شكرها لجعلها الصبي على ما هو عليه، فقد منحته ما هو أكثر من الجمال. وأنت ترتكب خطأ فادحًا في عدم إقناعها بالقدوم والاعتناء بك، وسأدعوها إلى لوريديل».

«لن تترك الصبي»، أجاب الإيرل.

«لا بد أن يأتي الصبي أيضًا»، قالت ليدي لوريديل ضاحكة.

لكنها علمت أن الصبي لن يعطى لها، وتجلى لها كل يوم ارتباط الاثنين ببعضهما، وأن أمل الرجل العجوز العابس المتكبر وطموحه انصبا على الطفل، وأن القلب المحب بادله الحب بثقة مطلقة وإيمان صادق.

كما عرفت أيضًا أن السبب الرئيس لحفلة العشاء تلك كان رغبة الإيرل الخفية في التباهي بحفيده ووريثه أمام العالم، والسماح للناس برؤية أن الصبي الذي تحدثوا عنه ووصفوه كثيرًا كان أجمل وأحسن الصبيان، أكثر مما وصفته الأقاويل.

«كان بقيس وموريس خزيًا موجعًا له»، قالت لزوجها، «والجميع علم بذلك. لقد كرههما حقًا، ولكن غروره أرضي الآن كامل الرضا». لعل أحدًا لم يقبل الدعوة دون الإحساس بشيء من الفضول حيال اللورد متسائلًا إن كان سيراه.

وحين حان الوقت ظهر اللورد.

«للصبي أخلاق حسنة»، قال الإيرل، «ولن يكون له مثيل، فالأطفال عادة إما حمقى أو ثقيلي الظل وكان لأبنائي كلتا الصفتين. لكن بوسعه الإجابة عندما يتحدث إليه أحد ويصمت فيما عدا ذلك، إنه ليس سليط اللسان».

لكنه لم يسمح له بالصمت طويلًا. إذ كان لدى الجميع ما يقولونه له، بل إنهم تمنوا أن يتحدث. فدللته النساء وسألنه أسئلة، وسأله الرجال أيضًا ومزحوا معه كما فعل الرجال على الباخرة حين عبر الأطلسي. لم يفهم اللورد تمامًا سبب ضحكهم أحيانًا حين

يرد عليهم، لكنه اعتاد رؤية الناس يضحكون حين يكون جادًا ولم يمانع. وجد الأمسية مبهجة، فقد كانت الغرف الكبيرة مشعة الأنوار، وفيها الكثير من الزهور. وبدا الرجال جذلين وارتدت السيدات ثيابًا جميلة رائعة، وفي شعورهن وحول أعناقهن حليّ براقة. رأى سيدة شابة، سمعهم يقولون إنها عادت من لندن، حيث قضت الإجازة، وكانت آسرة فلم يبعد عينيه عنها. كانت سيدة طويلة شابة لها رأس أشم صغير وشعر ناعم داكن، وعينان كبيرتان بلون البنفسج، وشفتاها ووجنتاها بلون الورد. وارتدت ثوبًا أبيض جميلًا، وطوقت عنقها باللآلئ. وكان في السيدة شيء واحد غريب، إذ وقف قربها الكثير من الرجال، وحاولوا جاهدين إسعادها، فحسبها اللورد أميرة. كان مهتمًا بها كثيرًا ولم ينتبه فاقترب منها أكثر فأكثر، فالتفتت له أخيرًا وتحدثت معه.

قالت باسمة: «ادن مني أيها اللورد، وأخبرني لمَ تنظر إلي هكذا؟».

«كنت أتأمل جمالك»، أجاب اللورد.

ضحك الرجال كثيرًا، وضحكت الشابة أيضًا، واشتد لون الورد في وجنتيها.

«أوه أيها اللورد»، قال أحد الرجال الذي ضحك بحرارة «استمتع بوقتك، فلن تتحلى بالشجاعة لقول ذلك حين تكبر».

قال اللورد بعذوبة «ولكن لا يمكن لأحد أن يغفل قول ذلك، أيمكنك؟ ألا تظنها جميلة أيضًا؟».

«لا يسمح لنا بقول ما نفكر فيه»، قال الرجل وضحك الباقون أكثر.

لكن السيدة الجميلة، واسمها ڤيڤيان هربرت، مدت يدها وجذبت سدريك نحوها وبدت أجمل من ذي قبل.

«سيقول اللورد ما يفكر فيه»، قالت، «وأنا ممتنة له. وأنا واثقة أنه يفكر فيما يقول»، وقبلته على خده.

«أظنك أجمل من أي امرأة رأيتها»، قال اللورد ناظرًا إليها بعينين بريئتين معجبتين، «عدا الغالية طبعًا. لا أذكر امرأة جميلة بقدر جمال الغالية، وأظنها أجمل نساء العالم».

«أنا واثقة أنها كذلك»، قالت الآنسة ڤيڤيان هربرت وضحكت وقبلته على خده ثانية.

وأبقته إلى جانبها بقية الأمسية، وكانت المجموعة التي يتوسطانها مرحة للغاية. لم يعرف كيف حدث ذلك، ولكن سرعان ما أخذ يخبرهم عن أمريكا، ومسيرة الجمهوريين والسيد هوبز وديك، وأخرج في النهاية من جيبه بفخر هدية ديك يوم الفراق، المنديل الأحمر الحريري.

«لقد وضعته في جيبي الليلة لأنها حفلة»، قال، «وظننت ديك يحب أن أحمله في حفلة».

وبقدر ما كان الشيء الكبير المرقط الفاقع اللون غريبًا، كان في عينيه نظرة حب جادة منعت جمهوره من الضحك كثيرًا.

«إنني أحبه كما ترون، لأن ديك صديقي».

ورغم أن الضيوف تحدثوا إليه كثيرًا، لكنه ليس له مثيل كما قال الإيرل. إذ بوسعه أن يلزم الهدوء والصمت حين يتحدث الآخرون، ولم يجده أحد مضجرًا بفضل ذلك. عبرت بسمة خفيفة أكثر من وجه حين ذهب مرات كثيرة للوقوف قرب كرسي جده، أو للجلوس على مقعد قربه مراقبًا إياه ومنشغلًا بكل كلمة يقولها باهتمام مفتون. مرة وقف قرب مسند الكرسي قريبًا جدًا حتى لامس خده كتف الإيرل، وابتسم سيادته بعد أن رأى ابتسامات الجمع، وعرف ما يفكر به الناظرون، وشعر بشيء من المتعة الخفية برؤيتهم صداقته الحميمة مع حفيده، الذي توقع أن يشاطرهم الرأي الشائع حوله.

توقع وصول السيد هاڤشم بعد الظهر، لكنّ تأخره غريب. إذ لم يُعرف أن شيئًا كهذا حدث قبلًا خلال السنوات التي كان فيها يزور قلعة دورنكورت. وقد تأخر كثيرًا وكان الضيوف على وشك النهوض للتوجه إلى مائدة العشاء حين وصل. وحين اقترب من مضيفه نظر إليه الإيرل مندهشًا، فقد بدا مستعجلًا أو حانقًا، وبدا وجهه الجاف الفطن العجوز شاحبًا حقًا.

قال بصوت خفيض للإيرل «لقد حبسني أمر ليس في الحسبان».

ما كان شيء يثير حنق المحامي العجوز المنظم أكثر من التأخر، ولكن كان جليًا أنه متكدر، ولم يتناول شيئًا على العشاء. وحين خوطب أجفل مرتين أو ثلاث مرات، كأنما كان شارد الذهن. حين دخل اللورد عندما قدمت الحلوى، نظر إليه المحامي أكثر من مرة

قلقًا ومضطربًا، ولاحظ اللورد تلك النظرة وتساءل عنها. فقد كان هو والسيد هاڤشم على وفاق، وتبادلا الابتسامات عادة، وبدا أن المحامي نسي الابتسامة ذلك المساء.

بل بدا أنه نسي كل شيء عدا الأخبار المؤلمة التي علم أن عليه إبلاغ الإيرل بها قبل انقضاء الليلة. وقد تكون الأخبارالغريبة التي عرفها صدمة فظيعة، وستغير وجه كل شيء. وحين نظر إلى الغرف الجميلة والجمع السعيد؛ هؤلاء الناس الذين عرف أنهم اجتمعوا لرؤية الصبي الصغير ذي الشعر الأشقر قرب كرسي الإيرل أكثر من أي سبب آخر. وحين نظر إلى العجوز الفخور وإلى اللورد يبتسم إلى جانبه، ارتعدت أوصاله رغم أنه محامٍ صلب. يا له من كرب ذاك الذي عليه مواجهته!

لم يعرف تمامًا كيف انتهى العشاء الفخم الطويل، فقد جلس فيه كأنه في حلم. ورأى الإيرل يرمقه مذهولًا عددًا من المرات.

لكنه انتهى أخيرًا. وانضم الرجال إلى السيدات في غرفة الجلوس، ووجدوا اللورد جالسًا على أريكة مع الآنسة ڤيڤيان هربرت، أجمل الجميلات في آخر إجازات لندن. وكانا ينظران إلى بعض الصور، وهو يفكر برفيقه حين فتح الباب.

«إنني ممتن لك للطفك معي»، قال، «لم أحضر حفلة من قبل، وقد استمتعت للغاية».

لقد استمتع كثيرًا. وحين اجتمع الرجال حول الآنسة هربرت ثانية وأخذوا يتحدثون إليها، أصغى وحاول فهم أحاديثهم

الضاحكة. وأخذ جفناه يهبطان، ويهبطان حتى يغطيا عينيه مرتين أو ثلاثًا، ثم يوقظه صوت ضحكة الآنسة هربرت الخفيضة الجميلة فيفتحهما ثانية للحظتين. وكان واثقًا أنه لن ينام، ولكنّ خلفه وسادة كبيرة من الطيسان الأصفر غاص فيها رأسه وهبط جفناه بعد ذلك لآخر مرة. ولما لم يفتحهما، بعد ما بدا وقت طويل، قبله أحد بنعومة على الخد. كانت الآنسة ڤيڤيان هربرت التي أرادت المغادرة، وخاطبته بنعومة قائلة:

«ليلة هانئة أيها اللورد. نم جيدًا».

لم يعلم في الصباح أنه حاول فتح عينيه، وأنه غمغم ناعسًا «ليلة هانئة. أسعدتني رؤيتك كثيرًا... إنك جميلة للغاية...».

بل تذكر لمامًا أنه سمع الرجال يضحكون ثانية، وأنه سأل لِمَ يضحكون.

ما إن غادر آخر الضيوف الغرفة، حتى استدار السيد هاڤشم من مكانه قرب النار واقترب من الأريكة حيث وقف ينظر إلى النائم عليها. كان اللورد الصغير يستلقي رغدًا، وساقاه متقاطعتان تتدليان من حافة الأريكة، وأحد ذراعيه ملقى براحة على رأسه. وكان على وجهه الهادئ احمرار من نوم الأطفال الهانئ المنعم الدافئ، وتناثرت خصلات شعره الأشقر على وسادة الطيلسان الأصفر، وكان بذلك لوحة جديرة بالنظر إليها.

وحين نظر السيد هاڤشم إليه، رفع يده وفرك ذقنه الحليق بقسوة.

«حسن يا هاڤشم»، قال الإيرل بصوت عنيف من خلفه، «ما الأمر؟ من الواضح أن أمرًا قد حدث. فما الحدث الغريب إن أمكنني السؤال؟».

استدار السيد هاڤشم من الأريكة ولم يزل يفرك ذقنه، وأجاب:

«إنه خبر سيء. خبر مقلق، بل إنه أسوأ الأخبار، ويؤسفني أن أكون ناقله».

شعر الإيرل بالقلق لبعض الوقت أثناء الأمسية كلما نظر إلى هاڤشم، وهو يغدو شكسًا كلما شعر بالقلق.

«لماذا تنظر هكذا إلى الصبي؟»، قال بحنق، «لقد نظرت إليه طوال المساء، كأنما... اسمعني الآن، لم تنظر إلى الصبي وتقف فوقه مثل نذير شؤم يا هاڤشم؟ ما علاقة أخبارك باللورد؟».

قال السيد هاڤشم «لن أطيل الكلام يا سيدي. لأخباري علاقة باللورد، وإن صدقناها، فمن يستلقي نائمًا أمامنا ليس اللورد، بل هو ابن النقيب إِرول فحسب. وأما اللورد الحالي فهو ابن ابنك بڤيس، وهو الآن في نزل في لندن».

تشبث الإيرل بمسندي الكرسي بكلتا يديه حتى برزت عروقه منهما، وبرزت العروق في جبهته أيضًا وازرق وجهه الصارم العجوز، وصرخ:

«ماذا تعني؟ إنك مجنون، كذبة من هذه؟».

«إن كانت كذبة»، أجاب السيد هاڤشم، «فهي مؤلمة كالحقيقة.

جاءت امرأة إلى مكتبي هذا الصباح، وقالت إن ابنك بفيس تزوجها منذ ستة أعوام في لندن، وأرتني قسيمة الزواج. ثم تشاجرا بعد سنة من الزواج ودفع لها كي يبعدها عنه، ولها ابن في الخامسة من العمر. إنها أمريكية من الرعاع، امرأة جاهلة، ولم تدرك إلا مؤخرًا ما يمكن أن يكون ملكًا لابنها. فاستشارت محاميًا ووجدت أن الصبي هو اللورد ووريث إيرلية دورنكورت، وتصر طبعًا على أن يُعترف بمطالبه».

تحرك الرأس الأجعد على وسادة الطيلسان الأصفر، وخرجت تنهيدة رقيقة ناعسة من الشفتين المنفرجتين، وتململ الصبي في نومه، ولكن ليس بداعي القلق أو الانزعاج، ولا كأن رقاده كدره أنه دجال صغير، وأنه ليس اللورد ولن يكون إيرل دورنكورت. وأدار وجهه المورد على جانبه كأنما ليمكن العجوز الذي حدق به حزينًا أن يراه أفضل.

كان الوجه العجوز العابس الوسيم شاحبًا، وارتسمت عليه ابتسامة حزينة.

«أرفض تصديق كلمة من ذلك»، قال، «لولا أنه أمر وضيع يسهل ربطه باسم ابني بفيس. إن هذا الفعل يشبه أفعال بفيس تمامًا. لقد كان مخزيًا لنا. إن ابني ووريثي اللورد بفيس ما هو إلا حيوان ضعيف كاذب فاسد له ذوق منحط. أقلت إن المرأة جاهلة وسوقية؟».

«علي القول إنها لا تستطيع تهجئة اسمها»، أجاب المحامي،

«إنها أمية وجشعة، ولا تبالي بسوى المال. كما أنها جميلة جمالًا فجًا، ولكن...».

توقف المحامي العجوز الفطن عن الكلام واقشعر بدنه.

برزت العروق في جبين الإيرل العجوز مثل حبال بنفسجية.

وبرز عليها شيء آخر، قطرات باردة من العرق، فأخرج منديله ومسحها، وغدت ابتسامته أكثر حزنًا وقال:

«وقد... وقد عارضت المرأة الأخرى أم هذا الطفل (مشيرًا إلى النائم على الأريكة)، ورفضت الاعتراف بها، وهي تستطيع تهجئة اسمها. أظن هذا قصاصًا».

نهض من كرسيه فجأة وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وتدفقت من شفتيه كلمات صارمة ورهيبة. فقد هزه غضبه وخيبة أمله وكراهيته كما تهز العاصفةُ الشجرةَ، وكان عنفه مخيفًا رؤيته. ولاحظ السيد هاڤشم أنه لم ينس الصبي النائم على وسادة الطيلسان الأصفر، وهو في فورة غضبه، ولم يتحدث مرة بصوت عال فيوقظه.

«كان علي معرفة ذلك»، قال، «لقد جلبا لي الخزي منذ ولادتهما. وقد كرهت كليهما، وكرهاني، وكان بڤيس أسوأ الاثنين. لن أصدق هذا، وسأقاومه حتى النهاية. لكن هذا الفعل من طباع بڤيس، يشبه طبعه».

ثم غضب ثانية وسأل أسئلة عن المرأة، ودلائلها، وهو يذرع

الغرفة. وقد تحول لونه إلى الأبيض بادئ الأمر، ثم إلى البنفسجي في غضبه الكظيم.

وحين عرف أخيرًا كل ما ينبغي له معرفته، وعرف الأسوأ، نظر إليه السيد هاڤشم بقلق. فقد بدا مكسورًا ومهزومًا ومتغيرًا. كانت نوبات غضبه مرهقة له دومًا، لكن هذه كانت أسوأ من البقية لأن فيها شيئًا أكثر من الغضب.

تقدم نحو الأريكة بتؤدة في النهاية ووقف قربها:

«لو أخبرني أحدهم أنني سأحب طفلًا»، قال وصوته الأجش خفيض ومتهدج، «لما صدقته. لقد كرهت الأطفال دومًا، وكرهت أطفالي أكثر من سواهم. لكني مولع بهذا، وهو مولع بي (بابتسامة حزينة) أنا لست محبوبًا، ولم أكن يومًا. لكنه يحبني ولم يخف مني ووثق بي دومًا. وأعلم أنه سيحمل اللقب أفضل مما فعلت أنا، وسيكون شرفًا لاسم العائلة».

انحنى ووقف دقيقة أو نحوها ناظرًا إلى الوجه النائم السعيد، وقد انعقد حاجباه الكثان بقوة، لكنه لم يبدُ صارمًا البتة. ورفع يده ودفع الشعر الأشقر بعيد عن الجبين، ثم استدار وقرع الجرس.

وحين ظهر أضخم الخدم، أشار إلى الأريكة وقال وقد تغير صوته قليلًا:

«خذ اللورد إلى غرفته».

الفصل الحادي عشر

أخذ السيد هوبز يشعر بالوحدة حقًا، حين تركه صديقه الصغير ليذهب إلى قلعة دورنكورت ويصبح لوردًا. وقد عرف البقال أن المحيط الأطلسي يفصل بينه وبين الرفيق الصغير الذي قضى ساعات مبهجة كثيرة بصحبته. الحق أن السيد هوبز لم يكن رجلًا حاذقًا ولا ذكيًا، بل كان رجلًا بطيئًا بليدًا، ولم يعقد صداقات قط. ولم يتمتع بنشاط ذهني فيعرف كيف يسلي نفسه، بل إنه لم يفعل شيئًا له طابع مسلٍ سوى قراءة الصحف وجمع حساباته. لم يكن سهلًا عليه أن يجمع حساباته، واستغرق جمعها جمعًا صحيحًا وقتًا طويلًا أحيانًا. وفي الأيام الخوالي، حاول اللورد مساعدته أحيانًا إذ تعلم الجمع بإتقان مستخدمًا أصابعه وقطعة ورق وقلم رصاص. ثم إنه كان مستمعًا جيدًا ويهتم بما تقوله الصحف، وكان له أحاديث طويلة مع السيد هوبز عن الثورة والبريطانيين والانتخابات والحزب الجمهوري. فليس بغريب أنه ترك فراغًا في محل البقالة. بدا للسيد هوبز في البدء أن سدريك ليس ببعيد، وسيعود ثانية، وأنه يومًا ما سيرفع نظره عن صحيفته ويرى الفتى الصغير واقفًا عند الباب،

ببدلته البيضاء وجوربيه الحمراوين، وقبعته المصنوعة من القش على مؤخرة رأسه، ويسمعه يقول بصوته الصغير المرح «مرحبًا يا سيد هوبز! هذا يوم حار، أليس كذلك؟» ولكن عندما مرت الايام ولم يحدث هذا، انتاب الحزن والقلق السيد هوبز، ولم يعد يستمتع بقراءة الصحف قدر ما اعتاد. فيضع الصحيفة على ركبتيه بعد قراءتها ويجلس على المقعد العالي لوقت طويل. كانت على الأرجل الطويلة علامات أشعرته بالكآبة والهجران، فهي آثار خلفها كعبا حذاء الإيرل المستقبلي لدورنكورت، حين يركل بقدميه ويتحدث في آن معًا. وبدا أن الإيرلات الصغار يركلون أرجل الأشياء التي يجلسون عليها، والدم النبيل والمحتد الكريم لا يمنعان ذلك. وبعد النظر إلى هذه الآثار يخرج السيد هوبز ساعته الذهبية ويفتحها، ويحملق بالمكتوب «إلى السيد هوبز من أقدم أصدقائه اللورد، تذكرني حين ترى ذلك». وبعد التحديق بها لوهلة يغلقها بنقرة عالية ويتنهد وينهض ويذهب للوقوف عند الباب، بين صناديق البطاطا وبراميل التفاح، وينظر إلى الشارع. في الليل حين يغلق المتجر، يشعل غليونه ويسير بتؤدة على الرصيف حتى يصل البيت الذي سكنه سدريك، وقد وضعت عليه لافتة تقول «هذا المنزل للإيجار»، فيقف قربها ويرفع رأسه ويهزه، وينفث غليونه بقوة ويمشي بعد وهلة حزينًا عائدًا.

استمر هذا لأسبوعين أو ثلاثة قبل أن تخطر له فكرة جديدة، وقد استغرق وقتًا دومًا للوصول إلى أفكار جديدة لأنه بطيء وكثير التفكير. لم يكن محبًا للأفكار الجديدة في العادة بل يؤثر القديمة. على أية حال، بعد أسبوعين أو ثلاثة لم تتحسن فيها الأمور، بل ازدادت

سوءًا. فطرأت له خطة جديدة شيئًا فشيئًا ودون عجلة. سيذهب لرؤية ديك. لقد دخن الكثير من الغليونات قبل أن يصل إلى هذه الفكرة، لكنه توصل إليها أخيرًا. سيذهب لرؤية ديك، فهو يعرفه جيدًا، إذ أخبره عنه سدريك، وقد ظن أن لدى ديك شيئًا يريحه إن تحدثا عن الأمر معًا.

لذا، حين كان ديك منهمكًا في العمل يمسح حذاء زبون ذات يوم، وقف على الرصيف رجل بدين قصير له وجه سمين ورأس أصلع، وحدق للحظتين أو ثلاث بلافتة ماسح الأحذية التي تقول:

«لا يمكن هزيمة الأستاذ ديك تيتن».

ونظر إليها طويلًا، وأخذ ديك يهتم به اهتمامًا فائقًا، وحين وضع اللمسة النهائية على حذاء الزبون قال:

«أتود تلميع حذائك يا سيدي؟».

تقدم الرجل البدين بهمة ووضع قدمه على المسند.

«أجل»، قال.

ثم اندفع ديك إلى العمل، والرجل البدين ينقل نظره بين ديك واللافتة.

«من أين حصلت على هذه؟»، سأله.

«من صديق لي»، قال ديك، «صبي صغير، وقد أعطاني الثياب. كان أفضل الفتيان على الإطلاق. إنه في إنجلترا الآن وسيصبح أحد اللوردات».

«لورد... لورد...»، سأل السيد هوبز ببطء متفكرًا، «أهو اللورد الذي سيصبح إيرل دورنكورت؟».

كاد ديك أن يوقع فرشاته.

«عجبًا يا سيدي! أتعرفه أنت؟»، قال.

أجاب السيد هوبز ماسحًا جبينه الحار «لقد عرفته منذ ولد. إننا صديقا عمر، هذا ما كناه».

لقد شعر بالحماس قليلًا للحديث عنه، فسحب الساعة الفاخرة الذهبية من جيبه وفتحها وأرى ديك باطن العلبة.

«تذكرني حين ترى هذه»، قرأ، «كانت هذه هدية الفراق لي. «لست أريدك أن تنساني»، وهذه كلماته، إني أتذكره»، وتابع هازًا رأسه، «ولو لم يقدم لي شيئًا ولم أرَ منه شيئًا. لقد كان صديقًا يتذكره الجميع».

«إنه ألطف الصبيان الذين قابلتهم»، قال ديك، «وأما عن الشجاعة، فلم أر صبيًا يتحلى بهذا القدر من الشجاعة. إنني أفكر به كثيرًا حقًا. وكنا صديقين أيضًا، صديقين مقربين منذ البدء، ذلك الصبي وأنا. لقد جذبت كرته من تحت المركبة من أجله، ولم ينس ذلك قط، بل أتى إلى هنا مع أمه، أو مربيته وقال «مرحبًا يا ديك» بحرارة كأن طوله ستة أقدام، وهو الصغير جدًا، ويرتدي ثيابًا كالفتيات. لقد كان فتى مرحًا، وحين يصيبك سوء الحظ يجعلك الحديث معه بأفضل حال».

«هذا صحيح»، قال السيد هوبز، «من المؤسف أن يغدو إيرلًا. كان سيبرع في أعمال البقالة، أو متجر السلع الجافة. كان سيبرع فيها»، وهز رأسه بأسى أشد من ذي قبل.

تبين أن عندهما الكثير مما يقولانه لبعضهما ومن المحال قوله في مرة واحدة. فاتفقا على أن يزور ديك السيد هوبز الليلة التالية في المتجر ويبقى بصحبته. أسعدت الفكرة ديك كثيرًا، لقد قضى عمره كله في الشارع، لكنه ليس بالفتى السيء، وكان عنده رغبة خفية في حياة أكثر احترامًا. وما دام دخل التجارة، فقد جمع مالًا يكفي لينام تحت سقف بدلًا من النوم في الشوارع خارجًا. وأخذ يأمل أن يصل إلى مبتغاه بمرور الزمن. لذا بدا له حدثًا هامًا أن يدعوه للزيارة رجل بدين محترم يملك متجرًا على الناصية وحصانًا وعربة.

«أتعرف شيئًا عن الإيرلات والقلاع؟»، سأل السيد هوبز، «أود معرفة تفاصيل أكثر».

«في صحيفة بني ستوري قصة عن أحدهم»، قال ديك، «عنوانها جريمة التاج، أو انتقام الكونتيسة ماي. إنها رائعة أيضًا. أخذها بعض الأولاد لقراءتها».

«اجلبها حين تأتي»، قال السيد هوبز، «سأدفع ثمنها، واجلب كل ما بوسعك العثور على ما فيه ذكر لإيرل. إن لم يكن إيرلات فماركيزات أو دوقات رغم أنه لم يذكر قط أي دوق أوماركيز، لقد تحدثنا عن التاج قليلًا لكنني لم أر واحدًا قط. أحسب أنهم ليس عندهم منها في الأنحاء هنا».

«تجد واحدًا في متجر تفاني»، قال ديك، «لكني لن أعرفه لو رأيته».

لم يبين السيد هوبز أنه لن يعرفه لو رآه أيضًا، بل اكتفى بهز رأسه متأملًا.

«أظن أن الطلب على التيجان قليل»، قال وهذا أنهى النقاش.

كانت هذه بداية صداقة دائمة، وحين ذهب ديك إلى المتجر استقبله السيد هوبز بترحاب عظيم، وأعطاه كرسيًا مستندًا إلى الباب، قرب برميل التفاح. وبعد أن جلس زائره الشاب أومأ له باليد التي تحمل الغليون قائلًا:

«اخدم نفسك».

ثم نظر إلى صفحات القصة. وبعد أن قرأاها، ناقشا الأرستقراطية البريطانية ودخن السيد هوبز غليونه بقوة وهز رأسه كثيرًا. لقد هزه كثيرًا عندما أشار إلى المقعد العالي الذي يحمل الآثار على الساقين.

«هذه آثار ركلاته»، قال بحزن، «وأنا أجلس وأنظر إليها لساعات. يا لهذا العالم المتغير. يا إلهي! كان يجلس هناك ويأكل الرقائق من الصندوق والتفاح من البرميل، ويلقي بعقب التفاح إلى الشارع. ثم أصبح لوردًا يعيش في قلعة الآن. هذه ركلات اللورد وستكون ركلات الإيرل يومًا ما. أقول لنفسي أحيانًا «حسن، سأصاب بالذهول!»».

بدا أنه وجد راحة عظيمة في تأملاته وزيارة ديك. وقبل عودة

ديك تناولا العشاء في الغرفة الخلفية الصغيرة، وتناولا الرقائق والجبن والسردين وغيره من المعلبات في المتجر. وفتح السيد هوبز بوقار زجاجتين من نبيذ الزنجبيل وصب في كأسين واقترح نخبًا.

«هذه في صحته!»، قال رافعًا كأسه، «وأرجو أن يلقنهم درسًا، للإيرلات والماركيزات والدوقات وغيرهم».

التقى الاثنان كثيرًا بعد تلك الليلة، وكان السيد هوبز أكثر ارتياحًا وأقل وحدة. قرأا صحيفة القصص وغيرها الكثير من الأمور المثيرة، واكتسبا معرفة عن النبالة وطبقة النبلاء التي تدهش الرعاع لو عرفوها. ذهب السيد هوبز إلى مكتبة في وسط المدينة يومًا، بغرض زيادة مجموعتهما. فذهب إلى البائع واستند إلى المنضدة ليتحدث إليه.

«أريد كتابًا عن الإيرلات»، قال.

«ماذا؟!»، قال البائع.

«كتاب عن الإيرلات»، كرر البقال.

قال البائع ناظرًا نظرات غريبة «أخشى أن ليس عندنا ما تطلب».

«ليس عندكم؟»، قال السيد هوبز متلهفًا، «حسن، لنقل الماركيزات أو الدوقات».

«لست أعرف كتابًا كهذا»، أجاب البائع.

حنق السيد هوبز كثيرًا ونظر إلى الأرض ثم رفع نظره.

«ولا شيء عن الإيرلات من النساء؟».

«أخشى أننا لا نملك شيئًا»، قال البائع مبتسمًا.

«حسن»، قال السيد هوبز، «سأصاب بالذهول!».

وكاد أن يخرج من المتجر عندما ناداه البائع وسأله إن كانت قصة شخصياتها الرئيسة من النبلاء ستفي بالغرض. قال السيد هوبز إنها كافية، ما لم يستطع الحصول على كتاب كامل مكرس للإيرلات. فباعه البائع كتابًا اسمه «برج لندن» كتبه السيد هاريسن أينسورث، وعاد به إلى البيت.

عندما جاء ديك أخذا يقرأانه، وكان كتابًا رائعًا ومثيرًا للغاية. تدور أحداثه في حكم الملكة الإنجليزية الشهيرة التي يسميها الناس ماري الدموية. سمع السيد هوبز بأفعال الملكة ماري وعادتها بقطع رؤوس الناس، وتعذيبهم وحرقهم أحياء. فثار حماسه، وأخرج غليونه من فمه وحملق بديك واضطر في النهاية لمسح العرق من حاجبه بمنديل جيب أحمر.

«يا إلهي! إنه ليس بأمان»، قال، «إنه ليس بأمان! إن كانت النسوة يجلسن على عروشهن ويأمرن بأشياء كهذه، فمن يدري ما يحدث له هذه اللحظة؟ إنه ليس بأمان البتة! إن غضبت امرأة كهذه، فلن يكون أحد بأمان!».

«حسن» قال ديك رغم قلقه، «إن هذه ليست من يحكم الآن كما ترى. أعلم أن من تحكم الآن اسمها ڤكتوريا، وهذه التي في الكتاب اسمها ماري».

قال السيد هوبز وهو يمسح جبينه «حسن إذن. ألا تقول

الصحف شيئًا عن المخلّعة ولولب الإبهام[1] والإعدام حرقًا؟ إن الوضع لا يبدو آمنًا له هناك بوجود هؤلاء القوم الغريبين. يا إلهي! لقد قالوا لي إنهم لا يحتفلون بالرابع من يوليو!».

لقد أسرّ الهم في نفسه لعدة أيام، ولم يهدأ حتى تلقى رسالة اللورد، وقرأها عددًا من المرات لنفسه ولديك، وقرأ الرسالة التي تلقاها ديك في الوقت نفسه.

وجد كلاهما الفرح في رسالتيهما، فقرأا الرسالتين مرة بعد أخرى وتحدثا عنهما وفرحا بكل كلمة فيهما، وقضيا أيامًا يكتبان رديهما، وقرأاهما بقدر ما قرأا الرسائل التي تلقياها.

كان عملًا شاقًا على ديك أن يكتب رسالته. فكل ما يعرفه عن القراءة والكتابة تعلمه خلال أشهر قليلة حين عاش مع أخيه الأكبر وارتاد مدرسة مسائية. لكنه انتفع بذلك التعليم القليل، لأنه ولد ذكي. وتهجأ الكلمات في الصحف منذئذ، وتدرب على الكتابة بقطع من الطبشور على الرصيف، أو الجدران أو السياج. وأخبر السيد هوبز كل شيء عن حياته وعن أخيه الأكبر الذي كان حنونًا عليه بعد موت أمهما. كان ديك صبيًا صغيرًا عندئذ، مات والدهما قبل ذلك. اسم الأخ بن، وقد رعى ديك بقدر ما استطاع حتى كبر الصبي وصار قادرًا على بيع الصحف وإنجاز المهمات.

---

(١) المخلعة: من أدوات التعذيب وهي تضغط على أطراف المرء فتمزق عضلاته ومفصلاته، أما ولولب الإبهام فهي أداة شبيهة بكسارة الجوز يوضع فيها إبهاما الضحية ويلف لولبيًا بإحكام شديد.

وعاشا معًا، وحين كبر تمكن بن من التقدم حتى حصل على عمل لائق في متجر.

قال ديك مشمئزًا «ثم ذهب وتزوج فتاة، وغدا أحمق ولم يبق له شيء من عقل! تزوجها وسكنا معًا في غرفتين خلفيتين. وكانت فتاة سيئة، مثل نمر، تمزق الأشياء إربًا حين تغضب وكانت غاضبة طوال الوقت. وأنجبت طفلًا مثلها يصرخ ليل نهار، وعلي أنا الاهتمام به. وحين يصرخ ترمي الأشياء علي. لقد رمتني بطبق يومًا وأصاب الطفل وشق ذقنه. وقال الطبيب إن الندبة ستبقى حتى مماته. يا لها من أم حنونة! يا للهول! لكننا لم نقض الوقت معًا، أنا وبن والصغير، إذ كانت غاضبة من بن لأنه لا يجني المال بسرعة أكبر. فسافر في نهاية المطاف إلى الغرب مع رجل للعمل في مربى ماشية. وبعد ذلك بأسبوع، عدت إلى البيت ذات ليلة بعد بيع الصحف، فوجدت الغرفة مقفلة فارغة. وأخبرتني صاحبة البيت أن مينا قد رحلت، بل فرت هاربة. قال أحدهم إنها عبرت المحيط لتعمل مربية عند سيدة لها طفل صغير، ولم أعرف أخبارها منذئذ ولا أخبار بن. ولو كنت مكانه لما اغتظت البتة أيضًا، وأظنه لم يفعل. لكنه فكر بها كثيرًا في البداية. أقول لك إنه كان مجنونًا بها. لقد كانت فتاة مليحة حين تتأنق ولا تكون غاضبة. لها عينان سوداوان كبيرتان، وشعر أسود طويل حتى ركبتيها تجدله مثل حبل كبير بقدر ذراعك، وتلفه حول رأسها. وأقول لك إن عينيها ساحرتان! وقال الناس إنها نصف إيطالية، جاء أبوها أو أمها من هناك، وهذا جعلها غريبة الأطوار. أقول لك إنها كانت غريبة الأطوار حقًا!».

كثيرًا ما قاله للسيد هوبز عن أخيه بن الذي لم يكاتب ديك منذ سفره غربًا، إلا مرة أو اثنتين.

لم يكن حظ بن جيدًا. وتنقل من مكان لآخر، لكن المقام استقر به أخيرًا في كاليفورنيا، حيث يعمل في وقت تعارف ديك والسيد هوبز.

قال ديك يومًا «لقد سلبته تلك الفتاة كل الشجاعة. ولا أستطيع إلا أن آسى لحاله أحيانًا».

كانا جالسين عند باب المتجر يومًا والسيد هوبز يملأ غليونه.

«لم يكن ينبغي له أن يتزوج»، قال جادًا ونهض لجلب الثقاب، «يا للنساء! لم أر لهن نفعًا قط».

وحين أخرج عود الثقاب من الصندوق توقف ونظر إلى المنضدة، وقال:

«عجبًا! هذه رسالة! لم أرها قبلًا. لا بد أن ساعي البريد وضعها دون أن أنتبه، أو أن الصحيفة غطتها».

رفعها ونظر إليها بعناية، وقال:

«إنها منه! إنها منه حقًا!».

ونسي أمر غليونه، وعاد إلى كرسيه متحمسًا وأخرج مطواته وفتح الظرف.

«ترى ما الأخبار التي تحملها هذه المرة؟».

ثم بسط الرسالة وقرأ التالي:

قلعة دورنكورت

عزيزي السيد هوبز

أكتب إليك هذه الرسالة على عجل لأن عندي أمرًا غريبًا أخبرك به. أعلم أنك ستفاجأ يا صديقي العزيز حين أخبرك. إن الأمر كله خطأ ولن أكون لوردًا ولن أصبح إيرلًا. فثمة سيدة تزوجت عمي بفيس الذي مات وعندها صبي صغير، وسيكون هو اللورد، لأن هذا هو العرف في إنجلترا. يصبح أبناء أبناء الإيرلات الأكبر سنًا إيرلات إن مات الآخرون. أعني إن مات أبوه وجده. جدي لم يمت لكن عمي بفيس مات، وابنه هو اللورد ولست أنا، لأن أبي الابن الأصغر، واسمي هو سدريك إِرول كما كان في نيويورك. وكل الأشياء ستصبح للصبي الآخر. ظننت في البداية أن علي إعطاءه مهري وعربتي، لكن جدي يقول لا داعي لذلك. إن جدي حزين جدًا، وأظنه لا يحب تلك السيدة. ولكن لربما يظننا أنا والغالية حزينين، لأني لن أكون إيرلًا. أود أن أصبح إيرلًا أكثر مما ظننت في البداية، لأنها قلعة جميلة، وأحب الجميع. وإن كان المرء غنيًا، فبوسعه فعل الكثير. أنا لست غنيًا الآن، فإن كان أبو المرء الابن الأصغر، فلن يصبح غنيًا. سأتعلم أن أعمل لأتمكن من الاعتناء بالغالية. سألت ولكنز عن سياسة الخيول، ولعلي أصبح سائسًا أو سائق عربة. جلبت السيدة ابنها إلى القلعة، وتحدث إليها جدي والسيد هافشم. أظنها

كانت غاضبة، إذ تحدثت بصوت عال، وغضب جدي أيضًا. لم أره غاضبًا من قبل. ليت الأمر لم يغضبهم جميعًا. ظننت أن علي إخبارك أنت وديك في الحال، لأنكما تهتمان. هذا كل ما لدي في الوقت الراهن.

مع الحب من
صديقك القديم
سدريك إرول ليس اللورد

تهاوى السيد هوبز على كرسيه، وسقطت الرسالة على ركبته وانزلقت مطواته على الأرض والمظروف أيضًا.

«حسن»، قال، «إني مذهول!».

لقد كان مبهوتًا للغاية فغيّر عبارته. إذ كان من عادته القول دومًا «إنني سأصاب بالذهول!» لكنه قال هذه المرة «إني مذهول!»، وربما كان مذهولًا حقًا، لا أحد يدري.

«اللعنة!»، قال السيد هوبز، «في رأيي إنها مكيدة من الأرستقراطية البريطانية لسلبه حقوقه لأنه أمريكي. إنهم يكرهوننا منذ الثورة، وها هم ينتقمون منه. قلت لك إنه ليس بمأمن، وانظر ماذا حدث! كأنما كل الحكومة تحاول سلبه حقوقه الشرعية».

كان حانقًا للغاية. لم يقنع بتغير ظروف صديقه في البداية، لكنه مؤخرًا سُر بها كثيرًا بها. وبعد أن تلقى رسالة سدريك شعر بشيء من الزهو الخفي بمكانة صديقه الصغير. لم يكن رأيه بالإيرلات حسنًا، لكنه عرف أن المال أمر رائع حتى في أمريكا. وإن كانت كل

الثروة والفخامة ستذهب بذهاب اللقب، فلا بد أن الأمر صعب قليلًا.

«إنهم يحاولون سلبه اللقب»، قال، «هذا ما يحاولون فعله، والقوم الذي يملكون المال عليهم الاعتناء به».

وأبقى ديك برفقته حتى ساعة متأخرة للحديث عن الأمر. وحين غادر الشاب ذهب معه إلى ناصية الشارع، وفي طريق عودته توقف مقابل البيت الفارغ لبعض الوقت محملقًا بلافتة «للإيجار»، مدخنًا غليونه بكثير من البلبال.

الفصل الثاني عشر



بعد حفلة العشاء في القلعة ببضعة أيام، عرف كل من قرأ الصحف في إنجلترا القصة الرومانسية لما حدث في دورنكورت. وكانت قصة مثيرة حين سردت كل تفاصيلها. جيء بصبي أمريكي إلى إنجلترا ليكون اللورد، وقيل إنه صبي صغير مهذب ووسيم أحبه الناس. ثم الإيرل جده الفخور بحفيده، والأم الشابة الجميلة التي لم يغفر لها زواجها من النقيب إرول، والزواج الغريب لبڤيس اللورد الميت، والزوجة الغريبة التي لم يعرف أحد بأمرها، وظهرت فجأة مع ابنها قائلة إنه هو اللورد الحقيقي ولا بد أن يحصل على حقوقه. تحدث الناس عن هذه الأمور كلها وكتب عنها، وأحدثت جلبة هائلة. ثم انتشرت الأقاويل عن سخط إيرل دورنكورت بتحول مسار الأمور، وإنه سيتفحص المطالب عبر القانون، وقد ينتهي الأمر إلى محاكمة كبيرة.

لم تسد إثارة كهذه من قبل قط في المقاطعة التي تقع فيها إرلبورو. إذ وقف الناس في أيام السوق جماعات، وتحدثوا وتساءلوا عما

سيكون. ودعت زوجات المزارعين بعضهن بعضًا لشرب الشاي، فيتناقلن ما سمعن وما يظنن، وما يحسبن أنها ظنون الآخرين. وقصصن الحكايات الرائعة عن غضب الإيرل وعزمه على ألا يعترف باللورد الجديد، وكراهيته للمرأة أم المدعي. لكن السيدة دبل بالطبع من أمكنها قول الكثير، وقد ازداد التردد عليها أكثر من ذي قبل.

قالت «ويا له من مستقبل سيء، ولو أردت رأيي يا سيدتي سأقول إنني أدنته لفصله تلك المرأة الجميلة الحلوة عن طفلها. غير أنه أولع به وأصر عليه وفخر به واستشاط غضبًا لما حدث. والأدهى، أن هذه المرأة الجديدة ليست سيدة مثلما هي أم اللورد الصغير، فهي وقحة لها عينان سوداوان. كما يقول السيد توماس إنه ما من رجل محترم يرتدي بزة قد يذل نفسه أن يتلقى منها الأوامر، وإن دخلت البيت، فسيخرج هو منه. والصبي لا يقارن بالآخر بأي شيء يستحق ذكره، والرب يعلم ما سينجم عن كل ذلك، وأين سينتهي. ولقد صعقت حين نقلت لي جين الأخبار».

لقد سادت الإثارة كل مكان في القلعة، في المكتبة حيث جلس الإيرل والسيد هافشم وتحدثا، وفي قاعة الخدم، حيث تحدث السيد توماس والساقي وغيرهم من الخدم والخادمات وتعجبوا طوال النهار. وفي الإسطبلات حيث انشغل ولكنز بعمله وهو محبط، وساس المهر البني سياسة أروع من ذي قبل، وقال للحوذي حزينًا «لم أعلم صبيًا صغيرًا ركوب الخيل وتعلمه أفضل ولا أسرع مما فعل. لقد كان صبيًا يسر المرء الركوب خلفه».

ولكن في وسط كل هذه المعمعة، ثمة شخص هادئ ومطمئنًا. كان ذاك اللورد الصغير الذي قيل إنه لن يصبح اللورد أبدًا. صحيح أنه شعر بشيء من القلق والحيرة في البدء حين شرح له الأمر، لكن ذلك ليس بداعي الآمال الخائبة.

حين أخبره الإيرل بما حدث، جلس على مقعد ممسكًا بركبته، كما يفعل عادة حين يسمع شيئًا مهمًا، وحين انتهت القصة بدا رزينًا تمامًا وقال:

«يشعرني الأمر بالغرابة! يشعرني بالغرابة!».

نظر الإيرل إلى الصبي صامتًا، فقد جعله ذلك يشعر بالغرابة أيضًا، أغرب مما شعر به في كل حياته. وشعر بغرابة أكثر حين رأى الحيرة بادية على الوجه الصغير الفرح عادة.

«هل سيأخذون منزل الغالية وعربتها منها؟»، سأل سدريك بصوت قلق متهدج.

«كلا!»، قال الإيرل بحزم، بصوت عال حقًا، «لا يمكنهم أخذ شيء منها».

«آه»، قال سدريك بارتياح واضح، «ألا يمكنهم ذلك؟».

ثم رفع نظره إلى جده، وفي عينيه ظل حزين، وبدتا كبيرتين ورقيقتين للغاية.

قال بشيء من الخوف «أسيكون ذلك الصبي الآخر ولدك الآن كما كنت أنا؟».

«كلا!»، أجاب الإيرل، وقالها بصرامة وصوت عال أفزع سدريك.

«كلا؟»، قال متعجبًا، «ألن يكون؟ حسبت...».

فنهض من مقعده فجأة.

«أأكون ولدك وإن لم أصبح إيرلًا؟»، قال، «أأكون ولدك كالسابق؟»، وقد أشرق وجهه المحمر الصغير لهفة.

نظر إليه الإيرل العجوز من رأسه إلى قدميه، وانعقد حاجباه الكثان ولمعت عيناه الغائرتان تحتهما على نحو غريب، غريب جدًا!

«ولدي!»، قال. وصدق أو لا تصدق، كان صوته غريبًا، متهدجًا ومنكسرًا ومبحوحًا قليلًا، ليس مما يتوقع من صوت الإيرل أن يكون، رغم أنه تحدث بحزم وجزم أكثر من ذي قبل. «أجل، ستكون ولدي ما دمت حيًا. وأقسم إنني أشعر أحيانًا أنك الابن الوحيد الذي رزقت به يومًا».

احمر وجه سدريك بكامله، واحمر من البهجة والارتياح، ووضع كلتا يديه في جيوبه ونظر باستقامة إلى عيني قريبه النبيل.

«حقًا؟»، قال، «حسن، لست أعبأ إذن بأمر الإيرل البتة. لا أبالي إن صرت إيرلًا أم لا. ظننت... كما ترى، ظننت أن من سيصبح إيرلًا سيكون ابنك، وأنا ليس بوسعي ذلك، وهذا ما جعلني أشعر بالغرابة».

وضع الإيرل يده على كتفه وأدناه منه.

«لن يأخذوا منك شيئًا يمكنني إبقاؤه لك»، قال وهو يتنفس بصعوبة، «لست أصدق أن بوسعهم أخذ شيء منك. لقد خلقت لهذا المكان، وما زلت تشغله. ولكن أيًا ما يحدث ستحصل على كل ما أستطيع منحه لك، كله!».

لم يبد أنه يتحدث إلى طفل، فقد كان في وجهه وصوته عزم، وكأنه يقطع وعدًا لنفسه ولعله فعل.

لم يعلم قبلًا كم تغلغل حبه للصبي وفخره به في أعماق قلبه. لم ير قبلًا قوته وجماله وأخلاقه الحسنة كما رآها الآن، وبدا ذاك محالًا بفعل طبعه العنيد، بل أشد من المستحيل، أن يتخلى عما عزم عليه، وقد صمم على أنه لن يتخلى دون قتال ضارٍ.

ذهبت المرأة التي ادعت أنها الليدي بعد أيام قليلة من رؤيتها للسيد هاڤشم إلى القلعة وجلبت ابنها معها، فأبعدت لأن الإيرل لن يراها، وأخبرها الخادم بذلك عند الباب، وأن محاميه سيتولى القضية. كان توماس من أبلغها الرسالة وعبر عن رأيه بها بصراحة بعد ذلك، في قاعة الخدم، قال إنه يعرف السيدة حين يراها، لأنه عمل طويلًا بيوت رفيعة النسب، وإن كانت تلك سيدة فهو لا يعرف النساء».

أضاف توماس بارتياح «إن تلك الساكنة في بيت الصيد، أمريكية كانت أم ليست أمريكية، إنها السيدة الحقيقية، كما بوسع أي رجل محترم أن يرى بعينيه. لقد أخبرت هنري بذلك حين ذهبنا إلى هناك أول مرة».

غادرت المرأة، وعلى وجهها الجميل الفج نظرة تتراوح بين الخوف والقوة. ولاحظ السيد هاقشم خلال لقاءاته بها، أنها ليست بالذكية ولا بالجريئة كما حاولت أن تتظاهر، رغم طبعها الهائج وأخلاقها الفظة الوقحة. وبدت أحيانًا ضحية الادعاء الذي ادعته، كأنها لم تتوقع أن تلقى معارضة بهذا القدر.

قال المحامي للسيدة إرول «من الواضح أنها امرأة من الطبقات الوضيعة، فهي أمية وجاهلة بكل شيء، ولم تعتد لقاء أناس مثلنا فتماثلنا. ولا تعرف ما تفعل، وزياراتها للقلعة تجبنها. كانت حانقة لكنها خائفة. ولن يستقبلها الإيرل لكني أشرت عليه بالذهاب معي إلى دورنكورت أرمز حيث تقيم. وحين رأته يدخل الغرفة امتقع لونها رغم أنها استشاطت غضبًا في الحال، وهددت وطالبت في الوقت نفسه».

لقد دخل الإيرل الغرفة ووقف باديًا مثل عملاق أرستقراطي قوي، يحدق بالمرأة من تحت حاجبيه المعلقين دون أن ينبس بحرف. بل اكتفى بالتحديق بها متفحصًا إياها من رأسها حتى قدميها كأنها تحفة غريبة، وسمح لها بالحديث والمطالبة حتى تعبت، دون أن ينطق بحرف، ثم قال:

«تقولين إنك زوجة ابني الأكبر، فإن كان هذا صحيحًا، وكان الدليل الذي عرضته مقبولًا عندنا، سيكون القانون في صفك. وفي هذه الحال يكون ابنك اللورد. وسيُحقق بالأمر برمته، فكوني مطمئنة. إن ثبتت مزاعمك فستحصلين على حقوقك. لا

أريد رؤيتك ولا طفلك ما دمت حيًا، سيكون المكان آهلًا بكم لسوء الحظ بعد موتي، إنك المرأة التي توقعت أن يختارها ابني بقيس».

ثم أدار ظهره لها وخرج من الغرفة كما دخلها.

بعد ذلك بأيام قلائل أعلن عن وصول زائر للسيدة إرول، التي كانت تكتب في غرفتها الصباحية الصغيرة. وبدت الخادمة التي حملت الخبر متحمسة قليلًا، بل اتسعت عيناها من الدهشة، ولأنها شابة وغرّة نظرت إلى سيدتها بشفقة وقلق.

«إنه الإيرل بنفسه يا سيدتي»، قالت بصوت مذعور.

حين دخلت السيدة إرول غرفة الجلوس وجدت رجلًا عجوزًا مهيبًا طويلًا جدًا، يقف على بساط جلد النمر. كان له وجه وسيم عابس عجوز وأنف معقوف وشارب أبيض طويل ونظرة عنيدة.

«أحسبك السيدة إرول»، قال.

«أنا السيدة إرول»، أجابت.

«أنا إيرل دورنكورت»، قال.

صمت للحظة دون وعي لينظر إلى عينيها المرفوعتين. لقد كانتا شبيهتين بالعينين الكبيرتين المحبتين الطفوليتين التي رآهما ترفعان إلى عينيه كثيرًا كل يوم خلال الأشهر الماضية، فمنحتاه شعورًا طريفًا.

«إن الصبي يشبهك كثيرًا»، قال بغتة.

«كثيرًا ما قيل ذلك يا سيدي»، أجابت، «لكني سعيدة بظني أنه يشبه أباه أيضًا».

لقد كان صوتها عذبًا وأخلاقها بسيطة ولائقة، كما أخبرته الليدي لوريديل، ولم تبد مضطربة من قدومه المفاجئ البتة.

«أجل»، قال الإيرل، «إنه يشبه ابني أيضًا»، ووضع يده على شاربه الأبيض الكبير وجذبه بقوة وقال «أتعلمين سبب مجيئي؟».

قالت السيدة إرول «لقد رأيت السيد هاڤشم، وأخبرني عن المزاعم التي...».

«لقد جئت لإخبارك»، قال الإيرل، «أننا سنتحقق من أمرها ونتأكد إن كان بوسعنا. لقد جئت أبلغك أن الصبي سيدافع عنه بكل سلطة القانون، وحقوقه...».

قاطعه الصوت الرقيق:

«لن يأخذ شيئًا ليس من حقوقه، حتى لو منحه له القانون»، قالت.

«لا يمكن للقانون فعل ذلك لسوء الحظ»، قال الإيرل، «ولو كان ممكنًا لفعلنا. هذا المرأة الوضيعة وابنها...».

«لعلها تهتم لأمره بقدر ما أهتم لأمر سدريك يا سيدي»، قالت السيدة إرول، «ولو كانت زوجة ابنك الأكبر فابنها هو اللورد وليس ابني».

لم تعد خائفة منه مثلما حدث مع سدريك، بل نظرت إليه كما

نظر إليه سدريك. أما هو، فقد أسعده هذا في سره، رغم أنه كان مستبدًا طوال حياته، وقليلًا ما جرؤ الناس على مخالفته، وكان في هذا الأمر الجديد متعة. قال حانقًا قليلًا «أحسب أنك تفضلين ألا يصبح إيرل دورنكورت».

فاحمر وجهها الفاتح الشاب.

«إن إيرل دورنكورت للقب فاخر يا سيدي»، قالت، «أعلم ذلك، لكن ما يعنيني أن يكون مثلما كان أبوه، شجاعًا وصادقًا دومًا».

«على العكس من جده، إه؟»، قال الإيرل.

«لم أحظ بشرف معرفة جده»، أجابت السيدة إرول، «لكني أعلم أن ابني يؤمن»، وصمتت للحظة ناظرة في وجهه بهدوء ثم أضافت «أعلم أن سدريك يحبك».

قال الإيرل بجفاف «أكان سيحبني لو أخبرته لماذا لا أستقبلك في القلعة؟».

«كلا»، قالت السيدة إرول، «لا أظن ذلك، ولهذا لم أرغب أن يعلم».

قال الإيرل بفظاظة «حسن، قليل من النسوة من ستفعل ذلك».

أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا جاذبًا شاربه الكبير بعنف أكثر من قبل.

«أجل، إنه يحبني»، قال، «وأنا أحبه، ولا يمكنني القول إنني

أحببت أحدًا هكذا من قبل. إني مولع به. لقد أسعدني منذ البداية. أنا عجوز سئمت حياتي، وقد أعطاني شيئًا أعيش من أجله. أنا فخور به، وسررت حين حسبته سيصبح رأس العائلة يومًا».

ثم عاد ووقف أمام السيدة إرول وقال:

«إنني بائس، بائس!».

وبدا بائسًا، ولم تمنع كبرياؤه صوته من التهدج أو يديه من الارتعاش. وللحظة بدا أن في عينيه الغائرتين الصارمتين دموعًا، «ولعلي جئت إليك لأني بائس»، قال ناظرًا إليها، «اعتدت كرهك، وكنت أغار منك. لكن هذا الأمر البغيض المخزي قد غيّر ذلك، وبعد رؤية تلك المرأة الوقحة التي تسمي نفسها زوجة ابني بفيس وجدت الراحة في النظر إليك. لقد كنت عجوزًا أحمق حرون، وأحسب أني عاملتك معاملة سيئة. إنك تشبهين الصبي والصبي أهم شيء في حياتي. أنا بائس وجئت إليك لأنك تشبهين الصبي، وهو يحبك وأنا أحبه، عامليني بالحسنى قدر استطاعتك لخاطر الصبي».

قال كل ذلك بصوته الأجش وبشيء من الفظاظة، لكنه بدا مكسورًا لأول مرة وتأثرت السيدة إرول في أعماق قلبها، نهضت وحركت كرسيًا بمسندين إلى الأمام قليلًا.

«أرجو أن تجلس»، قالت بأسلوب مشفق رقيق جميل، «لقد حزنت كثيرًا وتعبت كثيرًا، وأنت بحاجة لكل قوتك».

كان الحديث إليه والاهتمام به بذلك الأسلوب الرقيق البسيط جديدين عليه فلم يعترض عليهما. لقد تذكر الصبي وفعل ما قالت

له. لعل خيبته وحطامه كانا درسًا له، ولولا حطامه لواصل كرهها. ولكنه وجدها مهدئة قليلًا في الوقت الراهن، سيبدو أي شيء مبهجًا على العكس من أم الوريث. ولهذه وجه وصوت جميلان جدًا وكبرياء جميلة حين تتحدث أو تتحرك. وسرعان ما قل حزنه بتأثير سحر هذا كله، ثم تحدث بهدوء.

«أيًا ما يحدث سيُتولى أمر الصبي، ويعتنى به الآن وفي المستقبل».

وقبل أن يغادر نظر في أرجاء الغرفة.

«أتحبين البيت؟»، سأل.

«كثيرًا»، أجابت.

قال «هذه غرفة مبهجة. أيمكنني القدوم ثانية والحديث عن الأمر؟».

«قدر ما تشاء يا سيدي»، كان جوابها.

ثم خرج إلى عربته ورحل، وأصيب توماس وهنري بالخرس في العربة لتغير الأمور.

الفصل الثالث عشر

ما إن نوقشت قصة اللورد ومصاعب إيرل دورنكورت في الصحف الإنجليزية، حتى نوقشت في الصحف الأمريكية. كانت القصة مثيرة للغاية ليمر عليها مرور الكرام، فتحدث الناس عنها كثيرًا، وصار لها نسخ عديدة وكان شراء كل الصحف ومقارنتها أمرًا يزيد المعرفة. قرأ السيد هوبز عنها كثيرًا حتى أصابته الحيرة، فقد وصفت إحدى الصحف صديقه الصغير سدريك بالطفل الرضيع، وأخرى على أنه شاب في أكسفورد يفوز بكل درجات الشرف، ويتميز بكتابته قصائد إغريقية. وقالت واحدة إنه خطيب سيدة شابة ذات جمال باهر، ابنة لدوق. وقالت أخرى إنه تزوج حديثًا. والأمر الوحيد الذي لم يقل إنه كان صبيًا في السابعة أو الثامنة، له ساقان رشيقتان وشعر أجعد. قالت إحدى الصحف إنه ليس بقريب لإيرل دورنكورت البتة، لكنه دعي صغير يبيع الصحف وينام في شوارع نيويورك قبل أن تلتقي أمه المحامي الذي جاء إلى أمريكا للبحث عن وريث الإيرل. ثم ذكر وصف اللورد الجديد وأمه، كانت أحيانًا غجرية وممثلة أحيانًا وإسبانية

جميلة أحيانًا أخرى. غير أنها كلها اتفقت على أن الإيرل كان عدوها اللدود، ولن يعترف بابنها وريثًا له إن استطاع. ولأن في الأوراق التي قدمتها عيبًا بسيطًا يُتوقع أن تقام محاكمة طويلة، قد تكون أكثر إثارة من أي شيء آخر حدث في المحكمة قبلًا. اعتاد السيد هوبز قراءة الصحف حتى يصاب بالدوار، ثم يناقشها مع ديك في المساء. وقد عرفا المكانة المهمة لإيرل دورنكورت، ودخله الهائل وعدد العزب وفخامة القلعة التي يسكنها وجمالها. وكلما عرفا أكثر زاد حماسهما.

«لا بد من فعل شيء»، قال السيد هوبز، «يجب ردع أمثالهم، إيرلات كانوا أم غير ذلك».

لكن ما من شيء يمكنهما فعله حقًا، سوى أن يكتب كل منهما رسالة إلى سدريك تحمل تأكيدًا على صداقتهما ومؤازرتهما. كتبا هذه الرسائل بأسرع ما يمكنهما كلما عرفا خبرًا جديدًا، وبعد كتابتها يسلمانها لبعضهما بعضًا لقراءتها.

هنا السيد هوبز يقرأ رسالة ديك:

صديقي العزيز

وصلتني رسالتك واستلم السيد هوبز رسالته. ونحن آسفان لحظك السيء. ونقول لك تمالك نفسك بقدر ما تستطيع ولا تدع أحدًا يغلبك. ثمة الكثير من اللصوص الذين سيحاولون كل ما بوسعهم للنيل منك إن لم تتحل بالشجاعة. ولكن هذه الرسالة لأقول إنني لم أنس ما فعلته من أجلي، وإن

لم يكن ثمة مناص فعد وكن شريكي. العمل جيد ولن تلقى بأسًا، وإن جاء صبي كبير يحاول إيذاءك فعليه أن يتحدث إلى الأستاذ ديك تيتن.

ليس لدي المزيد

ديك

وهذا ما قرأه ديك في رسالة السيد هوبز:

سيّدي العزيز

لقد استلمت رسالتك، وأقول إن الأمور تبدو سيئة. أظنه شيئًا مختلقًا، ولا بد من فعل شيء سريع. وما أود قوله في رسالتي أمران؛ أولهما أنني سأقلب الأمر، فابق هادئًا وسأرى محاميًا وسأفعل ما بوسعي. وإن حدث الأسوأ وتكالب علينا الإيرلات، فيمكنك مشاركتي في البقالة حين تكبر وستجد على الدوام لك بيتًا وصديقًا هنا.

المخلص لك

سايلس هوبز

قال السيد هوبز «سيكون بخير بيننا، إن لم يصبح إيرلًا».

«هذا صحيح»، قال ديك، «سأسانده. اللعنة عليّ إن لم أحب ذلك الصبي كثيرًا!».

في الصباح التالي فوجئ أحد زبائن ديك كثيرًا. كان محاميًا شابًا بدأ تمرينه، فقير مثل أي محام شاب لكنه ذكي ونشيط، وذكاؤه حاد وطبعه مرح، وكان عنده مكتب قديم قرب جوسق ديك، ويمسح

ديك حذاءه كل صباح. لم يكونا صديقين مقربين، لكنه يقول دومًا كلمة لطيفة أو دعابة لديك.

في ذلك الصباح بعينه عندما وضع قدمه على المسند، كان في يده صحيفة مصورة، صحيفة جريئة فيها صور للمشبوهين وغيرهم، وقد فرغ من قراءتها. فأعطاها للصبي حين انتهى مسح حذائه.

«هذه الصحيفة لك يا ديك»، قال، «يمكنك قراءتها حين تذهب إلى مطعم دلمونيكو لتناول إفطارك. فيها صورة لقلعة إنجليزية وكنة إيرل، امرأة شابة جميلة وشعرها كثيف، رغم أنها تبدو كمن ينوي شجارًا. عليك أن تعرف النبالة وطبقة النبلاء يا ديك، ابدأ بمقال إيرل دورنكورت المحترم والسيدة أم الوريث. مرحبًا، ما الأمر؟».

كانت الصور التي يتحدث عنها في الصفحة الأمامية، وحملق ديك بإحداها فاغرًا فاه وفاتحًا عينيه وقد صار وجهه المرهف شاحبًا من الدهشة.

«ما الأمر يا ديك؟ ما الذي سمرك؟»، سأله الشاب.

بدا ديك حقًا كأن شيئًا هائلًا قد حدث، وأشار إلى الصورة التي كتب تحتها:

«أم اللورد المدعي».

كانت صورة لامرأة حلوة لها عينان كبيرتان وجدائل ثخينة من الشعر الأسود حول رأسها.

«هي!»، قال ديك، «يا إلهي! إني أعرفها أكثر مما أعرفك!».

أخذ الشاب يضحك.

«أين التقيتها يا ديك؟»، قال، «في نيوپورت؟ أو عند زيارتك الأخيرة لپاريس؟».

نسي ديك أن يبتسم وأخذ يجمع فرشه وأشياءه كأن عليه فعل شيء سينهي عمله في الوقت الراهن.

«لا عليك»، قال، «إنني أعرفها. لقد أوقفت العمل لهذا الصباح».

وفي أقل من خمس دقائق أخذ يشق طريقه في الشوارع متجهًا نحو متجر السيد هوبز على الناصية.

لم يصدق السيد هوبز صدق أحاسيسه عندما نظر من وراء المنضدة، ورأى ديك يضع الصحيفة في يده. كان الصبي منقطع الأنفاس من الجري ويلهث كثيرًا، بل إنه لم يستطع الحديث حين وضع الصحيفة على المنضدة.

«مرحبًا»، قال السيد هوبز، «مرحبًا ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

«انظر إلى هذه»، قال ديك لاهثًا، «انظر إلى المرأة في الصورة. تلك التي تنظر إليها، إنها ليست أرستقراطية، ليست كذلك»، بسخط حارق، «إنها ليست زوجة لورد، يمكنك أكلي إن لم تكن تلك مينا. مينا، أنا أعرفها في أي مكان وسيعرفها بن أيضًا».

تهاوى السيد هوبز على مقعده.

«لقد عرفت أنها مكيدة»، قال، «عرفت ذلك. وقد فعلوها لأنه أمريكي».

«فعلتها!»، قال ديك بقرف، «لقد فعلتها: هي من فعلتها. لقد كانت مخادعة دومًا، وسأخبرك بما خطر لي لحظة رأيت صورتها. ذكر شيء عن ابنها في إحدى الصحف التي قرأناها، وقيل إن له ندبة في ذقنه. ضع هذه الأمور معًا، هي والندبة. ابنها ذاك ليس لوردًا أكثر مني، إنه ولد بن، الصبي الصغير الذي ضربته عندما ألقت رمتني بالطبق».

كان الأستاذ ديك تيبتن ولدًا حاذقًا دومًا، وجعله كسب عيشه في شوارع مدينة كبيرة أكثر حذقًا. فتعلم إبقاء عينيه مفتوحتين وأن يكون يقظًا لما يجري حوله. ولا بد من القول إنه استمتع بالإثارة والحماس كثيرًا في تلك اللحظة. ولو نظر اللورد في المتجر ذاك الصباح لشعر بالحماس حتمًا، وإن عزم على أن يحدد كل النقاش والخطط مصير صبي آخر غيره.

غمر السيد هوبز حس المسؤولية، وكان ديك يقظًا ونشيطًا. وأخذ يكتب رسالة إلى بن، وقصّ الصورة وأرفقها. وكتب السيد هوبز رسالة إلى سدريك وأخرى للإيرل، وكانا في خضم كتابة الرسالة عندما خطرت فكرة جديدة لديك.

قال «اسمع! إن الرجل الذي أعطاني الصحيفة محامٍ، فلنذهب ونسأله عن أفضل ما يجب فعله، فالمحامون يعرفون الكثير».

أعجب السيد هوبز بالاقتراح للغاية وبمهارات ديك في العمل.

«فليكن»، أجاب «لنذهب لزيارة المحامي».

وترك المتجر في رعاية بديل وجهد لارتداء معطفه وسار نحو وسط المدينة مع ديك. وظهر الاثنان مع قصتهما الرومانسية في مكتب السيد هاريسن وقد دهش ذلك الشاب كثيرًا.

لولا أنه محام شاب له طبع مقدام وقدر كبير من وقت الفراغ، لما اهتم من فوره بما قالاه له، ولأن كل شيء بدا صاخبًا وغريبًا للغاية. لكنه رغب كثيرًا بفعل شيء وصدف أنه يعرف ديك، وصدف أن ديك قال قوله بطريقة حاذقة ساردًا الحكاية.

قال السيد هوبز «وقل ما أجرك في الساعة وفكر بهذا مليًا،.أنا سأدفع التكاليف، أنا سايلس هوبز ومتجري في ناصية شارع بلاك، للخضار والبقالة الجيدة».

«حسن»، قال السيد هاريسن «سيكون أمرًا عظيمًا إن تبين صدقه، وسيكون أمرًا عظيمًا لي بقدر ما سيكون للورد. وعلى أية حال لا ضير من الاستقصاء. يبدو أن ثمة شكوك حول الصبي، وقد اختلفت أقوال المرأة في بعض تصريحاتها حول عمره، وأثارت الشكوك. لا بد من كتابة رسالة أولًا لأخي ديك ولمحامي عائلة إيرل دورنكورت».

وقبل غروب الشمس كتبت رسالتان وأرسلتا في اتجاهين مختلفين؛ واحدة سريعة خارج نيويورك في باخرة البريد في طريقها إلى لندن. والأخرى في قطار يحمل الرسائل والمسافرين إلى كاليفورنيا. وقد عنونت الأولى إلى السيد ت. هاڤشم المحترم. والثانية إلى بنجامين تيِتن.

وبعد إغلاق المتجر ذلك المساء جلس السيد هوبز وديك في الغرفة الخلفية وتحدثا معًا حتى منتصف الليل.

الفصل الرابع عشر



من المدهش أن يستغرق حدوث الأشياء الرائعة للغاية وقتًا قصيرًا، فقد استغرق الأمر بضع دقائق فيما يبدو لتغيير أقدار الصبي الصغير الذي يدلي ساقيه من المقعد العالي في متجر السيد هوبز، وتحويله من صبي صغير يعيش أبسط حياة في شارع هادئ إلى نبيل إنجليزي، ووريث إيرلية وثروة طائلة. واستغرق الأمر بضع دقائق فيما يبدو لتغييره من نبيل إنجليزي إلى أفاك مفلس صغير، ليس له حق في الرفاهية التي تمتع بها. وبقدر ما يبدو الأمر مدهشًا، فلم يستغرق وقتًا طويلًا كما للمرء أن يتوقع في تبديل وجه كل شيء وإعادة كل ما كان مهددًا بخسارته.

وقد استغرق أقل وقت لأن المرأة التي سمت نفسها بالليدي لم يكن لها من الذكاء بقدر ما تحمل من شر. وحين حاصرها السيد هاقشم بأسئلته عن زواجها وابنها، ارتكبت خطأ أو اثنين أثارا الشكوك، ثم فقدت سرعة بديهتها ورباطة جأشها. وفي غمرة غضبها وتوترها فضحت نفسها أكثر. كل الأخطاء التي ارتكبتها

تتعلق بابنها، فليس من شك بزواجها من اللورد بفيس، وأنها تشاجرت معه ودفع لها ليبعدها عنه. لكن السيد هاڤشم اكتشف أن قصة ولادة الصبي في موضع بعينه من لندن زائفة، وحين كانوا جميعًا في خضم المعمعة، وصلت الرسالة من المحامي الشاب في نيويورك ورسالة السيد هوبز أيضًا.

ويا لها من أمسية عند وصول الرسالتين، وعندما جلس السيد هاڤشم والإيرل وتحدثا عن خططهما في المكتبة!

«بعد لقاءاتي الثلاثة الأولى معها»، قال السيد هاڤشم، «ساورني شك قوي، وبدا لي أن الصبي أكبر مما قالت، وقد زلت في حديثها عن تاريخ مولده ثم حاولت تصحيح الأمر. والقصة التي تقولها هاتان الرسالتان تناسبان الكثير من شكوكي. ستكون أفضل خططنا أن نبرق على الفور للأخوين تيتن، ولن نخبرها بشيء عنهما، ثم نواجهها بهما فجأة في غفلة منها. إنها ليست إلا أفاقة خرقاء في نهاية المطاف. أظنها سترتعد أوصالها وستعترف بكل شيء في الحال».

وكان هذا ما حدث حقًا، فلم يقل لها شيء، ولم يجعلها السيد هاڤشم ترتاب بشيء وواصل لقاءها وأكد أنه يحقق في ادعاءاتها، وأخذت تشعر بالأمان، وكبرت آمالها بقوة، وغدت متعجرفة، كما توقع.

ولكن ذات صباح جميل، حين جلست في غرفة جلوسها في النزل الذي يدعى دورنكورت آرمز تعد الخطط الجميلة لنفسها، أُبلغت بوصول السيد هاڤشم، وحين دخل تبعه ثلاثة أشخاص،

أحدهم صبي مرهف الوجه والثاني شاب ضخم والثالث إيرل دورنكورت.

وثبت واقفة وصرخت صرخة ذعر، وقد انطلقت منها قبل أن تدرك. فقد ظنت أن القادمين الجديدين يبعدان آلاف الأميال، إن فكرت بهما أصلًا، وهو ما لم تفعله منذ سنوات، ولم تتوقع رؤيتهما ثانية. لا بد من القول إن ديك ابتسم قليلًا حين رآها.

«مرحبًا يا مينا!»، قال.

وقف الشاب الضخم، بن، صامتًا للحظة ونظر إليها

«أتعرفها؟»، سأله السيد هاڤشم، منقلًا نظره بينهما.

قال بن «أجل، أعرفها وتعرفني»، ثم أدار ظهره لها وذهب ووقف ينظر من النافذة، كأن رؤيتها أمر بغيض عنده، وهو كذلك حقًا. ثم حين رأت المرأة نفسها مفضوحة ومذهولة للغاية، فقدت السيطرة على نفسها واستشاطت غضبًا كما اعتاد ديك وبن رؤيتها تفعل قبلًا. فابتسم ديك قليلًا حين نظر إليها وسمع الشتائم التي كالتها لهم جميعًا، والوعيد العنيف الذي أطلقته، لكن بن لم يستدر للنظر إليها.

«يمكنني أن أقسم على شهادتي ضدها في المحكمة»، قال للسيد هاڤشم، «ويمكنني إحضار الكثير من الآخرين الذين سيفعلون. كان أبوها رجلًا محترمًا، رغم أنه من طبقة وضيعة، أما أمها فمثلها تمامًا، لكنها ميتة، وهو على قيد الحياة، وهو نزيه وسيشعر بالخزي منها، سيخبركم من تكون وإن كانت زوجتي أم لا».

ثم قبض يده فجأة واستدار أليها.

«أين الصبي؟»، سأل، «سآخذه معي، لقد انتهى أمره معك وأنا أيضًا!».

وما إن فرغ من قوله فُتح الباب المؤدي إلى غرفة النوم قليلًا، وأطل الصبي الذي جذبه الصوت العالي على الأرجح. لم يكن صبيًا مليحًا، لكن له وجهًا لطيفًا، ويشبه بن تمامًا، أباه، كما يمكن لأي أحد أن يرى، وكان على ذقنه ندبة بثلاث زوايا.

مشى إليه بن وأخذه بيده وكانت يده ترتجف.

قال «أجل، سأقسم إنه ابني أيضًا»، وقال للصبي الصغير «أنا أبوك يا توم، لقد جئت لأخذك. أين قبعتك؟».

أشار الصبي إلى مكانها على كرسي، وقد أسعده فيما يبدو قليلًا سماع أنه سيرحل، فقد اعتاد التجارب الغريبة كثيرًا، ولم يفاجأ أن يقول له غريب إنه أبوه. لقد اعترض كثيرًا على المرأة التي جاءت قبل بضعة أشهر إلى المكان الذي عاش فيه منذ طفولته، والتي قالت فجأة إنها أمه، وكان مستعدًا للتغيير تمامًا، حمل بن القبعة وسار نحو الباب.

قال للسيد هاقشم «تعرف أين تجدني إن احتجتني ثانية».

وخرج من الغرفة ممسكًا بيد الطفل دون النظر إلى المرأة ولو لمرة. كانت تفور غيظًا والإيرل يحدق بها بهدوء عبر نظارته، التي وضعها على أنفه الأرستقراطي الشبيه بأنف الصقر.

«هيا، هيا أيتها الشابة»، قال السيد هاڤشم، «هذا لن يجديك نفعًا، عليك إصلاح نفسك إن لم تريدي الزج بك في الحبس».

وكان في صوته شيء من الجفاف، ونظرت إليه نظرة عنيفة وتجاوزته مسرعة إلى الغرفة المجاورة صافقة الباب. ولعلها شعرت أن آمن شيء يمكنها فعله هو الخروج.

«لن نلقى مزيدًا من المتاعب منها بعد اليوم»، قال السيد هاڤشم.

وكان محقًا، لأنها غادرت في تلك الليلة نزل دورنكورت آرمز، واستقلت القطار إلى لندن ولم تُر بعد ذلك.

حين غادر الإيرل الغرفة بعد اللقاء ذهب إلى عربته في الحال، وقال لتوماس «خذني إلى بيت الصيد».

«إلى بيت الصيد»، قال توماس للحوذي حين صعد العربة، «وعليك أن تصدق أن الأمور تحولت تحولًا مفاجئًا».

حين توقفت العربة عند بيت الصيد، كان سدريك في غرفة الجلوس مع أمه.

دخل الإيرل دون تنويه، وبدا أطول بإنش أو نحوه، وأصغر بسنوات كثيرة واتقدت عيناه الغائرتان.

«أين اللورد؟»، قال.

تقدمت السيدة إرول وقد احمرت وجنتاها.

«أهو اللورد، أهو اللورد حقًا؟».

مد الإيرل يده وأمسك بيدها وأجاب:

«أجل، حقًا».

ثم وضع يده الأخرى على كتف سدريك.

«أيها اللورد»، قال بأسلوبه الجاف الآمر، «اسأل أمك متى ستأتي إلينا في القلعة».

طوق اللورد عنق أمه وقال:

«لتعيش معنا؟! لتعيش معنا دومًا؟!».

تبادل الإيرل والسيدة إرول النظر.

كان سيادة الإيرل جادًا تمامًا، فقد عزم على ألا يضيع الوقت في ترتيب هذا الأمر، وقد آمن أن عقد الصداقة مع أم وريثه أمر يلائمه.

قالت السيدة إرول مبتسمة ابتسامتها الرقيقة الحلوة «أأنت واثق تمامًا أنك تريدني هناك؟».

«تمام الثقة»، قال بوضوح، «لقد أردناك دومًا لكننا لم ندرك ذلك تمامًا، نأمل أن تأتي».

الفصل الخامس عشر



أخذ بن ابنه وعاد به إلى مربى الماشية في كاليفورنيا، وقد عاد في ظروف مريحة للغاية. فقد التقى به السيد هاڤشم قبل رحيله وأبلغه إن إيرل دورنكورت يود فعل شيء من أجل الصبي الذي كان سيصبح اللورد. ولذا رأى أن يستثمر في مربى ماشية له ويديره بما يؤمن له دخلًا جيدًا، ويؤمن شيئًا لمستقبل ابنه. وحين عاد بن، عاد على أنه مدير مربى للماشية وهذا جيد بقدر ما لو كان مرباه الخاص. وقد يصبح قريبًا ملكه، وهو ما حدث في سنين قلائل، ونشأ توم الصبي فيه ليكون يافعًا حسنًا محبًا لوالده بإخلاص، وكانا ناجحين وسعيدين واعتاد بن أن يقول إن توم عوضه عن كل المتاعب التي عاناها يومًا.

لكن ديك والسيد هوبز، اللذين جاءا مع الآخرين لرؤية أن الأمور مضت مضيًا حسنًا، لم يعودا لبعض الوقت. فقد قيل منذ البدء إن الإيرل سيتكفل بديك، ويحرص على أن يتلقى تعليمًا لائقًا. وقال السيد هوبز إنه قد ترك بديلًا موثوقًا في متجره لذا يمكنه

الانتظار لرؤية الاستعدادات للاحتفال بعيد ميلاد اللورد الثامن. ودعي كل المستأجرين، وسيقام في الحديقة رقص ولعب وطعام، وألعاب نارية ومشاعل في المساء.

«مثل يوم الرابع من يوليو»، قال اللورد، «مؤسف أن عيد ميلادي ليس في الرابع منه، لاحتفلنا بهما معًا، أليس كذلك».

لا بد من القول إن الإيرل والسيد هوبز لم يتواءما في البداية، كما أملا، في شؤون الأرستقراطية البريطانية. في الحقيقة لم يعرف الإيرل إلا قليلًا من البقالين، ولم يكن للسيد هوبز أصدقاء مقربون من الإيرلات. ولذا لم تثمر الأحاديث في لقاءاتهما القليلة. ولا بد من الاعتراف أن السيد هوبز أيضًا كان مذهولًا من الأبهة التي شعر اللورد أن من واجبه أن يريها له.

أعجب مدخل البوابة والأسدان الحجريان السيد هوبز قليلًا في البداية، وحين رأى القلعة وحدائق الزهور والدفيئات والمصاطب والطواويس والدياس والدروع، والسلالم الكبيرة، والإسطبلات والخدم مرتدي البزات ذهل حقًا، غير أن معرض الصور كان القشة التي قصمت ظهر البعير.

«أتشبه المتحف في شيء؟»، قال للورد حين دخل إلى الغرفة الكبيرة الجميلة.

«كلا»، قال اللورد بشيء من الريبة، «لا أظنها متحفًا. يقول جدي إنهم أسلافي».

«أسلافك؟»، تعجب السيد هوبز «كلهم؟ لا بد أن لجدتك أخوات كثيرات. هل رباهن جدك الأكبر كلهن؟»[1].

وغاص في مقعده ونظر حوله حائرًا، حتى تمكن اللورد بشيء من الصعوبة من توضيح أن الجدران لم تكن مغطاة بصور كلها لنسل جده الكبير.

بل وجد طلب مساعدة السيدة ميلن أمرًا ضروريًا، وهي تعرف كل من في الصور ويمكنها أن تقول من رسمها ومتى. وقد أضافت قصصًا رومانسية للوردات والليديات الذين اتخذوا موضوعًا للرسم. وحالما فهم السيد هوبز وسمع شيئًا من هذه القصص، فتن كثيرًا وأحب معرض الصور أكثر من أي شيء آخر، وكان كثيرًا ما يمشي من القرية حيث يقيم في دورنكورت آرمز ويقضي نصف ساعة أو نحوها يتجول في المعرض ويحدق بالسادة والسيدات المرسومين، الذين حدقوا به، ويهز رأسه طوال الوقت.

ويقول «كلهم إيرلات! وهو سيصبح واحدًا منهم، ويملك كل شيء!».

لم يعد في سره يشعر بالاشمئزاز كثيرًا من الإيرلات وأساليب عيشهم كما توقع، ومن المؤكد أن مبادئه الجمهورية الصارمة قد اهتزت قليلًا باطلاعه عن كثب على القلاع والأسلاف وما إلى

---

(١) الفتى يتحدث عن الأسلاف ancestors: أي الجدود السابقون (ج. سَلَف)، أما ما سمعه السيد هوبز فهو aunt's sisters أي أخوات العمة ففضلت استخدام الجمع نفسه على أن يكون المفرد مختلفًا (سِلف الرجل) والمقصود زوج أخت زوجته أو عديله.

ذلك. على أية حال، قال يومًا أمرًا لافتًا ومفاجئًا جدًا. «لن أمانع أن أكون أحدهم!»، قال وقد كان ذلك تحولًا كبيرًا.

يا ليوم عيد ميلاد اللورد ويا لاستمتاع الصغير به! ويا لجمال الحديقة المزدحمة بالناس المحتشدين الذين ارتدوا أفضل ثيابهم وأزهاها. ورفرفت الأعلام من الخيام وقمة القلعة، ولم يبق أحد إلا وحضر، لأن الجميع سعدوا حقًا أن اللورد سيصبح لوردًا، ويومًا ما سيصبح سيد كل شيء. أراد الجميع النظر إليه والى أمه الرقيقة الجميلة التي صادقت كثيرين. وأحب الجميع الإيرل أكثر، وشعروا بمزيد من الألفة معه لأن الصبي أحبه ووثق به، ولأنه أيضًا تصالح مع أم وريثه وعاملها باحترام. وقيل إنه بدأ يحبها أيضًا، وإن الإيرل قد يتغير مع مرور الوقت لعيشه بين اللورد الصغير وأمه، وسيصبح نبيلًا عجوزًا حسن الخلق، وقد يسعد الجميع أكثر وأكثر.

يا لجموع الناس الذين وقفوا تحت الأشجار وفي الخيام وعلى المروج! والفلاحون وزوجات الفلاحين يرتدون ثياب الأحد والقبعات والأوشحة والفتيات وعشاقهن، والأطفال ويركضون في الانحاء، والسيدات المسنات مرتديات شملاتٍ حمرًا يثرثرن معًا. وفي القلعة سيدات وسادة جاؤوا لرؤية الاحتفال وتهنئة الإيرل ولقاء السيدة إرول. وجاءت الليدي لوريديل والسير هنري والسير توماس آش وبناته، والسيد هافشم طبعًا ثم الآنسة فيفيان هربرت الجميلة، مرتدية أجمل ثوب أبيض وحاملة مظلة من الدانتيلا، يتحلق حولها الرجال للاهتمام بها، رغم جلاء محبتها للورد أكثر من الآخرين. وحين رآها جرى إليها وعانقها وعانقته

وقبلته بحرارة كأنه أخوها الصغير المدلل وقالت: «اللورد العزيز! أيها الفتى الغالي، إنني سعيدة جدًا، سعيدة جدًا».

ومن ثم مشت في الأرجاء معه وجعلته يريها كل شيء. وحين أخذها إلى حيث ديك والسيد هوبز وقال لها «هذا صديقي العزيز السيد هوبز يا آنسة هربرت، وهذا صديقي العزيز ديك، لقد أخبرتهما عن جمالك وقلت لهما إن عليهما رؤيتك إن جئت إلى عيد ميلادي». وصافحت كليهما ووقفت وتحدثت إليهما بأجمل أسلوب، سائلة أياهما عن أمريكا ورحلتهما وحياتهما منذ وصلا إنجلترا. ووقف اللورد قربها ينظر إليها بعينين محبتين، وقد احمرت وجنتاه بهجة لأنه رأى أن السيد هوبز وديك أحباها كثيرًا.

«حسن،» قال ديك بوقار بعد ذلك، «إنها أجمل فتاة رأيتها، إنها.... إنها جميلة فحسب. هكذا هي بلا عيب».

نظر الجميع إليها أينما مرت ونظر الجميع إلى اللورد، وسطعت الشمس ورفرفت الأعلام ولُعبت الألعاب ورُقصت الرقصات، ودامت المباهج وانقضت العصرية الفرحة، وكان اللورد سعيدًا مشرقًا.

بدا العالم بأسره جميلًا في عينيه.

كان شخص آخر سعيدًا أيضًا. رجل عجوز لم يشعر بسعادة مماثلة طوال حياته، رغم نبالته وثرائه. ولعلي سأخبركم حقًا أن سعادته عائدة إلى كونه أصبح أفضل مما كان عليه. لم يصبح فجأة طيبًا بقدر ما ظنه اللورد، لكنه أخذ يحب شيئًا على الأقل، ووجد

عددًا من المرات شيئًا من البهجة في فعل الأشياء الطيبة التي يقترحها الطفل البريء العطوف. ويا لها من بداية! وسر كل يوم أكثر بزوجة ابنه، بل بدأ يحبها أيضًا كما قال الناس، وأحب سماع صوتها العذب ورؤية وجهها الجميل. واعتاد أثناء جلوسه على الكرسي ذي المسندين أن يراقبها وهي تتحدث إلى الصبي، فسمع كلمات محبة رقيقة جديدة عليه، وأخذ يدرك لم ظل الصبي حسن النشأة مفعمًا بالنبل، رغم أنه عاش في شارع هادئ في نيويورك وعرف البقال وصادق ماسحي الأحذية، ولم يخزِ أحدًا، حتى عندما غيرته الثروة إلى سليل إيرل إنجليزي يعيش في قلعة إنجليزية.

كان أمرًا بسيطًا حقًا في النهاية، وكان ذاك لأنه عاش مع قلب رقيق وعطوف، وتعلم التفكير بأفكار رقيقة دومًا ليهتم بالآخرين. لعله أمر صغير للغاية، لكنه أفضل الأمور. لم يعلم شيئًا عن الإيرلات والقلاع وكان جاهلًا بكل الأشياء الفخمة الرائعة، لكنه كان محبوبا دومًا لأنه بسيط ومحب. وأن يكون المرء كذلك فكأنما ولد ملكًا.

نظر إليه إيرل دورنكورت العجوز ذلك اليوم، متنقلًا في الحديقة بين الناس يتحدث إلى من يعرف ومنحنيًا انحناءته السريعة حين يحييه أحدهم، مسليا صديقيه ديك والسيد هوبز. أو يقف قرب أمه أو الآنسة هربرت مصغيًا إلى حديثهما. وكان النبيل العجوز مسرورًا به، ولم يكن أسعد مما كان حين نزل إلى أكبر الخيام حيث جلس أهم سكان عزبة دورنكورت ذلك اليوم.

كانوا يشربون الأنخاب. وبعد أن شربوا في صحة الإيرل بحماس

أكبر مما أثاره اسمه يومًا من قبل، شربوا نخبًا في صحة اللورد. وإن كان في حب الناس للورد شك من قبل، فقد صار حبهم يقينًا. يا لصخب الأصوات وقرقعة الكؤوس والتصفيق! وأخذ أولئك الطيبون يحبونه أكثر وقد نسوا الشعور بأي حرج من السيدات والسادة في القلعة الذين أتوا لرويتهم، بل أطلقوا هديرًا لائقًا. ونظرت امرأة أو اثنتان ممن يتحلين بحس الأمومة برقة إلى الصبي حيث وقفت أمه من جانب والإيرل من جانب آخر، واخضلت عيونهما بالدمع ولم تقولا شيئًا.

«بارك الرب ذاك المحبوب الصغير!».

سر اللورد ووقف وابتسم وانحنى واحمر متورد الخدين من البهجة حتى جذور رأسه.

«أهذا لانهم يحبوني أيتها الغالية؟»، قال لأمه «حقًا أيتها الغالية؟ أنا سعيد للغاية!».

ثم وضع الإيرل يده على كتف الصبي وقال له: «قل لهم شكرًا على لطفهم أيها اللورد».

نظر اللورد إليه ثم إلى أمه «أيجب علي؟»، سأل بقليل من الخجل، فابتسمت وابتسمت الآنسة هربرت وكلاهما هزت رأسها موافقة. فتقدم خطوة إلى الأمام ونظر الجميع إليه. يا له من صبي صغير جميل بريء، بوجهه الشجاع الواثق! فتحدث بصوت عال قدر مستطاعه، وصوته الطفولي يرن واضحًا وقويًا: «إنني ممتن لكم دومًا!»، قال، «وأرجو أن تسمتعوا بعيد ميلادي لأنني

استمتعت به كثيرًا، وأنا سعيد لأني سأصبح إيرلًا. لم أحسب أنني سأحب الأمر في البدء، لكني أحبه، أحب هذا المكان أيضًا وأظنه جميلًا و... و... وعندما أصبح إيرلا سأبذل جهدي لأكون صالحًا مثل جدي».

وفي وسط الهتافات وصخب التصفيق تراجع قليلًا متنفسًا الصعداء، ووضع يده في يد الإيرل ووقف قربه، يبتسم ويميل إلى جانبه.

وهذه نهاية قصتي لكني سأضيف معلومة طريفة بأن السيد هوبز قد أصبح مفتونًا بالحياة الراقية، وكره ترك صديقه الصغير. فباع متجر الناصية في نيويورك واستقر في قرية إرلبورو الإنجليزية، وفتح متجرًا رعته القلعة وحقق نجاحًا هائلًا لاحقًا. ورغم أنه لم يتواءم مع الإيرل قط، إن صدقتني، فقد صار ذلك الرجل هوبز بمرور الوقت أرستقراطيًا أكثر من الإيرل نفسه. وقرأ أخبار كورت كل صباح، وتابع كل ما يجري في مجلس اللوردات. وبعد عشر سنوات، حين أنهى ديك تعليمه وكان على وشك زيارة أخيه في كاليفورنيا، سأل البقال الطيب إن كان يود العودة إلى أمريكا، فهز رأسه نفيًا بجدية.

«لن أعيش هناك»، قال، «لن أعيش هناك. أود البقاء قربه، وأن أعتني به بصورة ما. إن أمريكا بلاد رائعة للشباب والمتحمسين. لكن فيها عيبًا، فليس فيها أسلاف ولا إيرلات!».

النهاية

"تحلَّ بالطيبة والشجاعة والعطف والصدق دومًا يا عزيزي، وعندئذ لن تؤذي أحدًا طوال حياتك، وقد تساعد الكثيرين، وقد يصبح العالم الكبير أفضل.."

ولدت الكاتبة في إنجلترا، لكن الفقر اضطرها وعائلتها إلى الهجرة إلى أمريكا، ولم تبدأ الكتابة للأطفال إلا بعد زواجها من الطبيب سوان بيرنت.
نشرت الرواية مسلسلة في مجلة سانت نيكولاس بين عامي ١٨٨٥ و١٨٨٦، ثم صدرت في كتاب عام ١٨٨٨، بيعت منه عشرة آلاف نسخة في الأسبوع الأول لإصداره. ثم صار نمط الثياب التي يرتديها سدريك نمطًا رائجًا في أمريكا وأوروبا. وقد قال عنها رئيس الوزراء البريطاني وليم إوَرت غلادستون إنها سيكون لها عظيم الأثر في إحداث تغيير في المشاعر المتبادلة بين الشعبين الأمريكي والبريطاني.
"تحلَّ بالطيبة والشجاعة والعطف والصدق دومًا يا عزيزي، وعندئذ لن تؤذي أحدًا طوال حياتك.."، كانت هذه نصيحة "الغالية" لسدريك، ولعلها العدة المناسبة التي يحتاجها المرء في تعامله مع الآخرين. بل هي القوة "الناعمة" التي تحدث التغيير على المدى البعيد، فيكون أدوَم أثرًا وأمتن أساسًا.

لم يكن سدريك طفلًا ساذجًا بل ذا قلب محبٍّ بريء آمن بوصية أمه "الغالية" وأنها السبيل الوحيد لجعل هذا العالم أفضل وأكثر قابلية للعيش، وآمن في قلبه الصغير أن الحب واللطف هما السلطة الحقّة، التي لا بد أن تسود لتكون كل الأمور في نصابها الصحيح.

المترجمة



فرانسيس هوجسن بيرنت

الفتى النبيل



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 723205

www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com